حديث جبريل في الإسلام والإيمان

شرح

فضيلة الشيخ

عبد العزيز بن مرزوق الطريفي

تفريغ الدرس الأول

من الخصائص والصفات التي أوتيها النبي ﷺ جوامع الكلم وهي الألفاظ اليسيرة الجامعة للمعاني الكثيرة، ومن الأحاديث الجامعة لمباني الدين وقواعده؛ حديث جبريل عندما جاء يسأل النبي ﷺ عن الدين، لا سيما مسألة القدر لأن الكلام في القدر من أوائل البدع التي ظهرت وذلك أيام ابن عمر رضي الله عنهما، فحدث ابن عمر بحديث جبريل، والقدر سر الله في خلقه وعلى العبد أن يسلم له ولا يخوض في ذلك بغير علم فيضل. وفي حديث جبريل أدب الطالب مع العالم، من التواضع، والسؤال للتعلم وغيرها من الآداب.

جوامع الكلم

الحمد لله رب العالمين, وصلى الله وسلم وبارك على نبينا مُحَمَّد, وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين, أما بعد:

فإن رسول الله ﷺ قد بعثه الله عز وجل بجملة من الخصائص والصفات, ومن هذه الخصائص والصفات ومن أجلها وأنفسها أن الله عز وجل بعثه بجوامع الكلم, وجوامع الكلم هي الألفاظ اليسيرة الجامعة للمعاني الكثيرة, وقد جعل الله سبحانه وتعالى لكلام رسول الله ﷺ الخصائص التي لا تكون لغيره, وذلك لحاجة الأمة إلى الألفاظ اليسيرة المتضمنة للمعاني الكثيرة التي تحتاج إليها في عاجل أمرها وآجله, وتحتاج إليها في دينها ودنياها.

ونحن بإذن الله عز وجل في ساعات متتالية نتكلم على شيء من هذه الأحاديث التي جاءت عن رسول الله ﷺ وهي من جوامع الكلم, جمعت أصول الإسلام وشيئاً مهماً من أركانه وفروعه, وذلك لحاجة المسلم إليه, ولهذا كان من الواجب والمهم على المتعلم إذا أراد أن يفهم الدين وأن يفهم أحكام الشريعة أن يتبصر بحقائق هذه المعاني وهذه الأحاديث التي تسمى بجوامع كلمه عليه الصلاة والسلام.

وقد صنف العلماء عليهم رحمة الله في ذلك مصنفات عديدة للأحاديث الواردة عن رسول الله ﷺ التي تتضمن معاني كثيرة وألفاظها قليلة, ونحن وإياكم نحفظ أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ مختصرة ويسيرة, ونجد أن معانيها عظيمة جليلة القدر, ويستخرج منها الإنسان معاني كثيرة فيما يتعلق بأمر دينه وما يتعلق بأمر دنياه.

أهمية حديث جبريل

حديث جبريل الطويل حديث جليل القدر, وهو أيضاً من الأحاديث التي أولاها السالفون من الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم عناية بالغة بمعرفة معانيها, وكذلك أيضاً ما اختصت الروايات في هذا الحديث به من معان وأحكام, وكذلك أيضاً فإن مناسبة الحديث وحديث جبريل الطويل في الأسئلة التي سأل جبريل رسول الله ﷺ إياها ليعلم الناس الجواب.

ويدل على أهمية هذا الحديث أن الله سبحانه وتعالى أرسل جبريل من السماء إلى رسولنا عليه الصلاة والسلام ليسأل جبريل هذه الأسئلة, وليعلم رسول الله ﷺ الحاضرين, وكذلك أيضاً فإن النبي عليه الصلاة والسلام قادر على أن يعلم الصحابة بلا سؤال سائل, والله جل وعلا أيضاً قادر أن يأمر رسول الله ﷺ أن يبلغ صحابته بمعاني تلك المسائل من غير أن يفعل جبريل إلى رسول الله ﷺ ويسأله تلك الأسئلة ليجيب تلك الأجوبة التي بقيت محفوظة لنا إلى اليوم.

حديث جبريل الطويل في الأسئلة التي وجهها إلى رسول الله ﷺ بها عماد الدين, ومستمسك وهي المعتصم وهي النجاة, هي أصل الدين وفرعه, وهي أسه وكله, من استمسك بالمعاني الواردة في هذا الحديث نجا, ومن ضل عن المعاني الواردة في هذا الحديث ضل وغوى وأصبح أمره إلى هلاك وزيغ وتيه وظلمات.

ولهذا إن المؤمن الذي يتبصر بالمعاني الواردة في هذا الحديث على اتباع وهدى لطريق مُحَمَّد ﷺ, وذلك لأن هذا الحديث على ما تقدم من جماع وجوامع كلم رسول الله ﷺ, ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام كما جاء في الصحيح: (إنما بعثت بجوامع الكلم)، يعني: أعبر بألفاظ قليلة ما يتضمن معاني كثيرة تصلح بها دنيا الناس, ويصلح بها دينهم.

وكما تقدم فإننا في هذا المجلس أو في هذه الساعات نتكلم على حديث جبريل الطويل في إتيانه إلى رسول الله ﷺ وسؤاله وجلوسه بين يديه, وهذه الأسئلة وأهميتها والجواب الذي جاء من رسول الله ﷺ, وترتيب السؤال, وصفته, وكذلك الجواب وترتيبه ونوعه والحاضرين والحاجة إليه, وأنواع المسائل والأجوبة التي جاوب بها رسول الله ﷺ جبريل، ولماذا سأل جبريل رسول الله ﷺ هذه الأسئلة على سبيل التخصيص وترك غيرها مما هي من الدين, أو ترك غيرها ربما تكون من صالح دنيا الناس, ولم يسأل رسول الله ﷺ عنها.

ولهذا ستكون طريقتنا في تعليق على هذا الحديث هي القراءة لهذا الحديث, والأجزاء الواردة في ذلك من حكاية تلك القصة إتيان جبريل وسؤاله وإجابة النبي عليه الصلاة والسلام نتوقف عند كل كلمة في هذا الحديث ونتكلم عليها بإذن الله عز وجل بما يأتي الشرح من كلام الله وكلام رسول الله ﷺ والسالفين وما في ذلك من العبر والبراهين والأدلة والعظات التي يستدل منها الإنسان في دينه ودنياه.

سبب إيراد حديث جبريل

الملقي: الحمد لله رب العالمين, وصلى الله وسلم وبارك على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم إنا نسألك أن تفقهنا في الدين, وأن تعلمنا التأويل, وأن تعلمنا ما ينفعنا, وأن تفعنا بما علمتنا, وأن تزيدنا علماً ينفعنا يا رب العالمين. أما بعد:

فقد قال الإمام مسلم بن الحجاج المتوفى سنة إحدى وستين ومائتين: [حدثني أبو خيثمة زهير بن حرب قال:

حدثنا وكيع عن كهمس عن عبد الله بن بريدة عن يحيى بن يعمر ح وحدثنا عبيد الله بن معاذ العنبري وهذا حديثه قال: حدثنا أبي, قال: حدثنا كهمس عن ابن بريدة عن يحيى بن يعمر قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني].

الشيخ: ذكرا السبب في هذا الحديث وإيراده, وكيف تلقى هذا الحديث, ولهذا يقول: كان أول من قال بالقدر بالبصرة معبد الجهني.

فالقول بالقدر ونفيه وأن الأمر أنف وأن الله عز وجل لم يقدر مقادير الخلائق ولا يعلمها سبحانه وتعالى قبل ذلك, هذه البدعة أول ما ظهرت في الإسلام في البصرة وأظهرها معبد الجهني.

ومعبد الجهني لما أظهر هذه البدعة في الناس في ظاهر أمره أنه أراد تنزيهاً لله سبحانه وتعالى, وهذا من مواضع الخطأ والزلل في حال عدم إدراك الإنسان لمسألة من مسائل الدين أو لفرع من فروعه, أو لعلة وحكمة من أحكامه أن يقوم الإنسان إلى الأصل بالنقض, وهذا من الخطأ, ولهذا الله سبحانه وتعالى يشرع الشرائع ويبين مسائل الدين ويكل الأمر إليه سبحانه وتعالى.

وكذلك أيضاً فإن الله عز وجل يصف الناس بقلة العلم, ويصف نفسه بكماله, ولهذا كثيراً ما يأمر الله عز وجل عباده بأوامر أو ينهاهم عن أوامر, ثم يقول الله عز وجل بعد ذلك: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:216]، وذلك أن الإنسان يدرك ظاهراً من المعاني ولا يدرك باطنها, كذلك أيضاً فيما يتعلق في جهة الإنسان من تكوينه وتركيبه وخلق الله عز وجل له لا يدرك الإنسان نفسه, فكيف يدرك غيره؟ ولهذا الله عز وجل يرجع الإنسان إلى نفسه في قوله: ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات:21] .

يعني: أنك تجهل نفسك وبحاجة إلى الرجوع إلى ذلك تبحث عن جديد فيها فأنت من جديد في غيرها من باب أولى من جهة الجهالة, ولهذا الله سبحانه وتعالى يأمر الإنسان بأن يبحث عن مكامن الجهل في ذاته وقصوره حتى يعلم أن ما يخفى عليه هو أعظم من ذلك؛ ولهذا منذ أن أوجد الله عز وجل البشرية في هذه الأرض, وهي في كل دقيقة تكتشف جديداً.

وهذا دليل على أن الذي يخفى على الإنسان لا ينتهي, وأن جهل الإنسان لا حد له, ولكنه يعلم مقدار مساحة العلم ويجهل مساحة الجهل, فيعيش في شيء يسير عنده ويظن أن هذا هو هذا الكون أو هذا العلم كحال الإنسان الذي يسير في ظلمة من الظلمات وفي حوله نور, وهذا النور يحيط به من جهاته بأمتار معدودة يظن أن هذا هو الكون وما عداه من ظلمة لا يراه ولا يعد شيئاً, ويبصر هذه النور التي هو فيها, لكنه يجهل ما عداها.

الذين أظهروا القدر ونفوا علم الله عز وجل أو نفوا تقدير الله سبحانه وتعالى على الخلائق أفعالهم وأقوالهم وآجالهم, وعلى سائر المخلوقات من خلقها وتدبيرها وأحوالهم وتغلبها, وتحولها من حال إلى حال, نفيهم لذلك أنهم أرادوا أن يجعلوا أن الله سبحانه وتعالى عدل كيف يقدر الله على خلقه شيئاً ثم يعاتبهم ويعاقبهم عليه؟

القدر من المسائل الدقيقة

ومسألة القدر هي من المسائل الدقيقة التي ربما لا يدركها الإنسان, فوجب عليه التسليم, وذلك أن الإنسان في معاني الأحكام وعلل الغيب يدرك شيئاً منها وتخفى عنه أشياء كثيرة, ومن هذه الأشياء مسألة القدر, وذلك أن في الإنسان شغف من جهة العلم والمعرفة, يحب أن يعلم كل شيء, وأن يبحث عنه, والله عز وجل جعل فيه عجزاً مركباً, وذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يستوعب كل شيء بحواسه, وحواس الإنسان الخمسة وسادسه النفس والمعنى القائم في النفس, سمع وبصر وشم ولون وإحساس, والمعنى القائم في النفس كل شيء من هذه الحواس لها حد محدود.

ولهذا الإنسان إذا أراد أن ينظر ببصره لا يرى كل شيء, يرى أشياء معينة ظاهرة ما عداها, ولبصره أمد, سمعه لا يسمع كل شيء, ولسمعه أمد, وإذا لم يسمع ولم ير ليس له أن ينفي وجود الأصوات أو وجود الذوات لأنه لم يرها أو لم يسمعها, إحساسه وذوقه وعدم وجود طعم لشيء في فمه لا يعني أنه ليس له طعم, ولكن ليس لديه قدرة على معرفة طعمه, كذلك أيضاً من جهة شمه لا يعني عدم وجود الروائح لأنك لا تدركها.

ولهذا الله سبحانه وتعالى جعل إدراك الإنسان قاصراً, كذلك أيضاً من جهة فهم المعاني جعل الله سبحانه وتعالى عقل الإنسان لا يدرك كل شيء, ولهذا أوجب الله عز وجل على الإنسان أن يؤمن بما أمره الله سبحانه وتعالى به ونهاه عنه, وأخبره الله عز وجل به وأوجب الله سبحانه وتعالى على الإنسان أن يسلم تسليماً ولو وجد في قلبه شيئاً من عدم التصديق من الريبة أو التناقض أو التضاد الذاتي.

ولهذا الله عز وجل يقول في كتابه العظيم: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:65] . يعني: لا بد من التسليم والانقياد, إذا أردت أن تحكم أوامر الله على مطابقتها لما تريد فأنت يجب أن تعلم كعلم الله سبحانه وتعالى, وإذا كنت تعلم كعلم الله عز وجل فلا شأن لك بأمر الله أن تدبر نفسك بنفسك فلا ثمة فرق بين خالق ومخلوق.

ولهذا الله سبحانه وتعالى يأمر الإنسان بأوامر ويأمره جل وعلا بالتسليم والانقياد له, ومن هذه المسائل التي لا يدركها عقل الإنسان مسألة القدر, تقدير الله عز وجل للخلائق, جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام كما في الصحيح: (أن الله عز وجل كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف عام)، هذه المقادير قدر الله عز وجل بها أمور الخلائق أحوالها آجالهم، الشقاوة والسعادة من جهة أماكنهم وذرياتهم وأزواجهم وغير ذلك مما يتعلق بهم في هذه الدنيا.

ولازم قدر الله عز وجل العلم, أن الله عز وجل له الكمال الفعلي, يعلم الله عز وجل ما كان, ويعلم ما يكون, ويعلم ما سيكون, ويعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون, يعني: حتى ما يتعلق بما لم يقع مما يمر على الناس لو أنه كان للنهي آثار ولوازمه الله سبحانه وتعالى يعلم ذلك.

مصادمة العقل للنقل أصل الابتداع

ولهذا مسألة القدر لما ظهرت وصادمت العقل للنص تولدت البدع, ومن هذه البدع بدعة القدر, ونفي التقدير أن الله لم يقدر, ويلزم من ذلك أن الله لا يعلم شيء, وعلى هذا أن الإنسان إذا فعل شيئاً من الأفعال أن الله لا يعلمها إلا حال حدوثها, وعلمه مصاحب لعلم الإنسان, تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً؛ ولهذا نقول: إن الله سبحانه وتعالى قدر مقادير الخلائق, وبين الله سبحانه وتعالى أنواع تفضيله جل وعلا, وكذا سعة علمه سبحانه وتعالى فيما يتعلق بكونه جل وعلا, والواجب على الإنسان التسليم.

العقل ومصارعته للنقل هي أصل الابتداع والإحداث والضلال في هذه الأرض وعند البشر, الله سبحانه وتعالى جعل عقل الإنسان كبصره, الإنسان إذا أراد أن يسير في الأرض لديه بصر ولديه قوة, لا يتبع هذا بهذا, لا يتبع هذا حتى يوجد هذا, وإذا وجد هذا ولم يوجد ذاك لم يتم الاتباع, الإنسان إذا كان أعمى لو كان في الظهيرة لم يتبع في بصره, وكذلك الإنسان إذا كان مبصراً في ظلام دامس, ولا يوجد قبس من نور لا من شمس ولا من قمر ولا من نجوم فإنه لا يرى موضعه ولا يستفيد كذلك من بصره.

الله عز وجل أوجد عقل الإنسان, وأوجد له الوحي, وعقل الإنسان لو كان مجنوناً ونزل عليه الوحي وأعطي الكتاب ما استفاد منه لماذا؟ لأنه مجنون, كذلك أيضاً فإن الإنسان إذا كان معه عقل وبصيرة ولكن ليس لديه كتاب, هل يصل إلى الله؟ لا يصل إلى الله, هل يدمر دنياه؟ يدمر دنياه كما تدمر البهيمة دنياها, تأكل وتشرب وتسير وتذهب ولكنها لا تهتدي إلى الله؛ لأنه لا يهتدى لله عز وجل إلا به.

ولهذا الله سبحانه وتعالى حينما خلق الخليقة, وأوجدهم في هذه الأرض أوجد فيهم فطرة تدلهم على الخالق, ولكن ما أوجد الله عز وجل فيهم علماً يدلهم على صفاته سبحانه وتعالى تامة كما هي في الوحي المنزل, ولكنهم يرون آياته ثم يفهمون بعض صفات الله سبحانه وتعالى به.

ولهذا تجدون في الكون بأنواع الخلق والبشر يؤمنون بوجود خالق, شيء أقوى منه, لكن ما كنه هذا الشيء لا يستطيعون معرفته إلا بأن يعرف الله عز وجل بنفسه, إذاً: فهم في تيه وضلال, ولهذا يتخبطون, هذا يعبد الحجر, وهذا يعبد كوكب, وهذا يتوقع أنها في بهيمة وحيوان, وهذا يتوقع أنها في جن وغول, وهذا يتوقع أن هذا في حجر أو في شجر أو غير ذلك, يتخبطون في هذه الأرض.

لهذا الله سبحانه وتعالى عرف الناس بنفسه سبحانه وتعالى في كتابه, وفي وحيه المنزل الذي ينزله الله عز وجل على أنبيائه تباعاً, كلما ضلوا وابتعدوا عن الله بعث الله عز وجل نبياً من أنبيائه, ولهذا يقول الله جل وعلا, كما جاء في الحديث القدسي:

(خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين)، يعني: انحرفوا.

ولهذا نقول: إذا ضعف الوحي كحال النور الذي يضعف في سير الإنسان يبقى لديه أنه رأى طريقه ولو لم يكن لديه نور فهو يبني على الشيء السابق لديه, ثم إذا وصل إليه واستحكمت الظلمة لم ير ما بعده وحينئذ يتيه في الأرض, ولهذا الله سبحانه وتعالى ينزل الوحي ويديمه حتى لا يبق الناس في جاهلية؛ ولهذا وجب على العقل أن ينقاد للنقل لا يتواجه هو وإياه.

ولهذا نقول: إن هذا العقل إذا أراد أن يجعل مقامه مع العقل في حال المواجهة كحال البصر الذي يواجه النور لا يستفيد منه, الله عز وجل أمر الإنسان أن يسير خلف النور لا أن يواجهه, إذا سار خلفه اهتدى وإذا أراد أن يواجهه تواجها وحينئذ لا يستطيع أن يرى لقوة النور, كذلك أيضاً العقل مع النقل وجب عليه أن يسير خلفه لا أن يواجهه, إذا واجهه لا يدرك كثيراً من علله وأحكامه؛ لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى يشرع أشياء لا يدرك الإنسان حقيقتها لضعفه وجهله وتباين الناس في إدراك حكم الله سبحانه وتعالى, وذلك لضعف خبرتهم وقلة أعمالهم, وكذلك أيضاً تنوع أحوال الناس وأماكنهم, وشهوات الإنسان والهوى عداواته الموجودة في نفسه.

منشأ بدعة القدر

ضربت بدعة القدر ومنشأها نظر عقلي, فنفوا أن الله عز وجل قدر مقادير الخلائق, وألجموا بشيء آخر في هذا أنكم إذا نفيتم القدر قدر الله سبحانه وتعالى فوجب عليكم أن تنفوا علم الله, أي: أن الله عز وجل إذا لم يقدر فيعني من ذلك أن الله لا يعلم شيء, فمنهم من التزم بهذا القدر وقال: إن الله عز وجل لا يعلم شيئاً, تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً.

ومنهم من قال: إنه يعلم ولكنه لم يقدر فوقعوا في شيء من التناقض, فلا يعلم الأجزاء بدقائقها وتفاصيلها وجزئياتها إلا من قدرها, ولا يعلم تقديرها بتفاصيلها وجزئياتها إلا من يعلمها سبحانه وتعالى, فهو عالم بها جل وعلا سبحانه وتعالى, ولهذا نقول: إن هذا الحديث في أصل رواية عبد الله بن عمر عليه رضوان الله تعالى أنه جاء لما حدثت هذه البدعة في البصرة, بدعة القدر ذهبوا إلى عبد الله بن عمر ليسألوه عن هذه البدعة التي ظهرت ما الحكم فيها, وما الرأي فيها؟ ويأتي الكلام عليه بإذن الله.

أهمية الرجوع للعلماء عند الفتن

الملقي: قال رحمه الله تعالى: [فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين فقلنا: لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ و, فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر, فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما داخلاً المسجد فاكتنفته أنا وصاحبي].

الشيخ: هذا فيه أنه ينبغي في حال الجهل وورود الفتن أن يلجأ الناس إلى العلماء, فهؤلاء انتقلوا من البصرة ليذهبوا إلى من؟ أن يبحثوا عن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فيسألوه عن هذه الحال بالأبجدية, والفتنة التي نزلت في بلدهم, فأرادوا أحداً من

أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام لأنهم أقرب الناس عهداً برسول الله ﷺ, وهم وصية رسول الله أن يتبعوا, وأن يقتدى بقولهم بعده عليه الصلاة والسلام.

ولهذا نقول: أقرب الناس فهماً لكلام رسول الله وإدراكاً لوحي الله عز وجل هم أصحاب رسول الله ﷺ, وذلك أنهم خالطوهم وعاشروهم وجالسوهم سمعوا قوله وقارنوا قوله بفعله, أما نحن فتأتينا الأقوال والحكايات مجتزئة عن سياقاتها, وكذلك أيضاً غير مقترنة بالحال التي نقلت منه, قول لا ندري هل قاله النبي ﷺ على المنبر؟ هل قاله جالساً, أم قاله ماشياً؟ هل قاله وخالفه بفعله؟ فهم يدركون مراد رسول الله ﷺ, فهم خالطوا وعرفوا مراده, وكذلك أيضاً يقيسون رأيه فيما يقوله مرة ويقوله مرة أخرى, وهل قاله عليه الصلاة والسلام وتعابير وجهه فيها التشديد والإلزام والقوة؟ وهل قالها بصوت مرتفع أو منخفض بحيث يعرفون في ذلك العزم, والتشديد في مثل هذا الأمر أو لم يأخذوا به؟ فكانوا هم المستمسك بعد رسول الله ﷺ, وأعلاهم في ذلك منزلة هم الخلفاء الراشدون, لهذا النبي عليه الصلاة والسلام يقول كما في المسند والسنن من حديث العرباض بن سارية: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي, تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ) .

لهذا إذا نزلت بمؤمن نازلة أو حدثت فتنة؛ عليه أن يسأل أهل العلم, وأن يتتبع أقوالهم, وإذا نزلت به فتنة أن يبحث عمن يجيبه من أهل العلم ممن يرجى منه ذلك ولو كان في بلد بعيد, وهؤلاء ارتحلوا من البصرة إلى الحجاز ليسألوا عن هذه البدعة خشية أن تفسد على الناس دينهم ودنياهم.

الملقي: قال رحمه الله: [فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله, فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي].

الشيخ: في هذا أنه يستحسن أن ينادى الإنسان بكنيته يا أبا فلان أو نحو ذلك بعيداً عن اسمه المجرد, ولهذا نادوا من باب الإجلال والاحترام والتوقير ابن عمر عليه رضوان الله في قولهم: يا أبا عبد الرحمن، وهذا من الأمور المستحسنة, وهو من الإكرام والإحسان.

الملقي: [فقلت: أبا عبد الرحمن! إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرءون القرآن ويتقفرون العلم, وذكر من شأنهم, وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف].

الشيخ: وهذا فيه تمرير إلى جملة من المعاني, وهو أنه ذكر أن أقواماً من قبلنا يقرءون القرآن ويتقفرون العلم, يعني: يتتبعونه في كل مكان, وأن تتبع الإنسان في العلم وأخذه للمسائل وتتبعه للقرآن وغير ذلك لا يعني أنه لا يزل ولا يقع في البدعة والضلال.

وكذلك أيضاً ينبغي أن يفرق بين من يقوم الحروف وبين من يقوم الحدود, والأمة إنما تضل إذا جهلت في دين الله سبحانه وتعالى, ولهذا وجب على المؤمن أن يعلم أن الله جل وعلا حينما أمرنا بالاعتصام والاستمساك بكتابه لأنه هو النجاة, وحينما أمرنا

بالاستمساك بسنة النبي عليه الصلاة والسلام لأنها هي الهدى والبصيرة التي ترشدنا إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى, ولهذا حينما ذكر قال: إن أقواماً قبلنا يقرءون القرآن ويتقفرون العلم, أشار إلى شيء من صفاتهم حتى لا يبخسهم حقهم من جهة ما يسعون إليه من طلب حقهم في ظاهر أمرهم.

ولهذا ينبغي علينا أن نعلم أن علم الإنسان لا يعصمه من الزلل, كذلك أيضاً ينبغي أن نفرق بين من يجيد القراءة أو يحمل القلم ويحسن الكتابة, وبين من يقيم العلم كما أمر الله سبحانه وتعالى.

النبي عليه الصلاة والسلام أخبر كما جاء في الصحيح في أحاديث كثيرة من حديث عبد الله بن عمرو وحديث أبي هريرة في قبض العلم في آخر الزمان, وقد جاء في الصحيح قول النبي عليه الصلاة والسلام: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور العلماء, ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رءوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا), يعني: أن خانة العالم لابد أن تكون مليئة وألا تكون مشلولة, إذا لم توجد في عالم فإنها لابد من وجود الجاهل فيه, لهذا وجب على العلماء أن يبينوا الحق للناس, ولهذا سنة التابع والمتبوع في الناس لابد أن تدوم في كل باب, في باب الاقتداء في الأخلاق, في الأموال, في السيادة في الدين لابد أن يكون ثمة تابع ومتبوع, وهذا أمر فطر الله عز وجل عليه الناس.

ولهذا تجدون الناس كحال الطيور من جهة الأسراب واتباعهم, منهم من يتبع ببينة وبرهان, ومنهم من يتبع بربع بينة, ومنهم من يأخذ الأمر بالظن, وهذا من الضلال, فوجب على الإنسان أن يأخذ الأمر ببينة, وهذه البينة لا يمكن أن يهتدي بها إذا كانت ديناً إلا بكلام الله عز وجل وكلام رسول الله ﷺ.

أما إقامة الحروف فإنها لا تعتني بذلك، فهم الدين, وقراءة القرآن وإقامة حروفه وحفظه وتجويده فلا تعني أن الإنسان يقيم الحروف ويفهم الدين, ولهذا الخلط الذي يقع عند المتأخرين أوقعهم في ذلك, وذلك في أمور أنهم يطلقون أن من حمل القلم وكتب فهو عالم, وأن من حمل القرآن فهو عالم, وليس كذلك, النبي عليه الصلاة والسلام كما جاء في حديث أبي هريرة في الصحيح, قال: (لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم, ويظهر الجهل, ويكثر الزنا)، وجاء في المرسل قال: (ويفشو القلم)، يظهر الجهل ويفشو القلم.

الأصل عند الأوائل أنه لا يحمل القلم إلا متعلم, لكن الآن كما كان الناس يحملون الألسن بداهة الآن يحملون القلم بداهة, ولكن لا يعني من ذلك علم.

كذلك أيضاً إقامة القرآن من جهة حروفه لا يعني فهم معانيه, لأن له معاني, فيه عام وخاص, وناسخ ومنسوخ, ومطلق ومقيد, لابد من معرفة هذا ومعرفة هذا, ولهذا عبد الله بن مسعود كما روى الدارمي في كتابه المسند قال: كيف بكم إذا لبستكم فتنة يهرم فيها الكبير ويربو فيها الصغير ويعمل فيها بغير السنة, حتى إذا تركت – تركت غير السنة–, قالوا: تركت السنة, يعني: ينتصرون للبدعة باسم السنة, حتى إذا تركت قالوا: تركت السنة, قالوا: متى ذلك يا أبا عبد الرحمن؟! قال: إذا كثر قراؤكم وقل

فقهاؤكم, وكثر أمراؤكم وقلت الأمانة فيهم, وابتغيت الدنيا بأعمال الآخرة.

وفي قول عبد الله بن مسعود عليه رضوان الله؛ فرق بين حامل الفقه وحامل القرآن, أن حامل القرآن لا يلزم منه أن يكون فقيهاً, فقد يقيم الحروف لكنه لا يقيم المعاني, ولهذا يوجد في العجم من يقيم القرآن ولكنه لا يفهم من معانيه شيء, بل لا يحسن النطق بمخارج الحروف كما ينطق الناس, ولكنه يحفظ القرآن وإن قصر في بعض مخارجه؛ ولهذا نقول: إنه لا بد من فهم كلام الله سبحانه وتعالى كما أراد الله.

والناس في هذا يضعفون ويقوون, نحن في زمن متأخر وبيننا وبين النبي عليه الصلاة والسلام أكثر من ألف وأربعمائة عام, بعدنا عن اللغة وعن الصدر الأول وعن فهمه, فإذا دخل على الأوائل من الدواخل من المخالفة مع إجادتهم لإقامة القرآن وفهم السنة فكيف بغيرهم؟

وفي هذا أيضاً لفتة مهمة وهي أن البدع العظيمة من نفي القدر إذا ظهرت في الصدر الأول فما البال بالقرون المتأخرة, وما البال فيما بعد ذلك بقرون بأكثر من أربعة عشر قرناً؟ ما يحدث من البدع والبلايا في دين الله عز وجل ممن يقرأ القرآن ويتقفر العلم ويتتبع العلم, لا شك أنه سيأتي مما هو أشد من هذا.

ولهذا وجب على المؤمن أن يحذر أن ما كل من رفع راية العلم عالم, وما كل من رفع راية العلم سالم, يعني: سالم من الابتداع أو الضلال أو الخطأ أو غير ذلك, لهذا وجب على المؤمن أن يتحرى الحق وذلك لينجو ويسلم له دينه؛ ولهذا حينما ذهبوا إلى عبد الله بن عمر عليه رضوان الله ذكروا من أوصاف أولئك أنهم كانوا يقرءون القرآن ويتقفرون العلم ويقولون ألا قدر وأن الأمر أنف, يعني: لا يوجد شيء مقدر على الناس, وأن الأمر أنف.

خطورة الكلام في القدر وأقوال الطوائف فيه

القدر على ما تقدم هو من المسائل التي تحير عقول كثير من الناس, وإدراكها هي من الأمور الشاقة, ولهذا يذكر بعض أهل النظر أن مسألة القدر ومحاولة فهم عقل الإنسان لها كحال البصر الذي ينظر للشمس في الظهيرة, إن أدام النظر فيها آلمته وحيرته ولم يستفد من ذلك شيئاً وأحرقته, وكذلك عقل الإنسان إذا أراد أن ينظر في مسائل في أمثال هذه ويديم النظر فيها, إدامة النظر فيها تزيده احتراقاً؛ لأن عقله لم يكن قادراً على استيعاب ذلك.

ولهذا نقول: إن الله عز وجل كما جعل للبصر حداً وللسمع حداً جعل لعقل الإنسان حداً, وحد الإنسان في ذاته كحال الإناء من جهة استيعابه البحر لا يمكن للإنسان أن يستوعب البحر في إنائه, ولو قال: إني أريد أن تأتيني بهذا الماء أفرغه في إنائي حتى أعرف مقداره, حتى أميزه, يقال له: لا تستوعب, وإناؤك لا يستوعب البحر يقول: أريد ذلك, وإذا أعطي إياه على إمكاناته هذه؛ لطوى البحر إناءه وتحير في ذلك ولم يحمل منه شيء.

ولهذا هذا موضع الاختبار والامتحان فيما لم يستوعبه الإنسان؛ ولهذا يذكر العلماء في مسألة القدر كأبي حنيفةيقول: مسألة القدر هي باب أقفل وضاع المفتاح. ويذكر أيضاً بعض العلماء كابن تيمية رحمه الله يقول: ما من أحد من الناس إلا وفي قلبه حسكة, يعني: من الأمور التي لا يستطيع أن يستوعبها في أمثال هذه المسائل, ومردها إلى علم الله عز وجل والإيمان والتصديق بما أخبر الله سبحانه وتعالى به من غير أن يرجع الإنسان ذلك إلى رأيه أو عقله أو إدراكه القاصر فيقيم أمر الله عز وجل على هذا.

مسألة القدر والتحير فيها موجود عند سائر أهل الملل والعقائد, عند البابليين، عند فلاسفة اليونان والرومان، في تحيرهم في مسألة القدر والتصرف بالكون, هل ثبت عالم يعلم ذلك؟ يؤمنون بهذا ولكنهم يكلون ذلك إلى تصرفات وتدبير مخلوقات أو كائنات في أحوال الكون.

ولهذا منهم من يقول: في أن الذي يدير أمر الكون والكواكب وغير ذلك كحال البابليين وغير ذلك, ومنهم كحال فلاسفة الهند وغيرهم الذين يقولون بوجود المتصرفين في التقدير تصرفات الخلق في أفعال الخير والشر, من يقدر أفعال الشر هو إله الشر, من يقدر أفعال الخير هو إله الخير.

ومنهم من يرى أنه لا يوجد قدر, أنه يوجد خالق لكن لا يوجد تقدير, بمعنى: أن الإنسان هو الذي يدير حاله من نفسه, لا يوجد من يقدر عليه, وهذا كحال الفلاسفة كأرسطو وغيره الذين يقولون: أنه ثمة خالق خلق الكون, ثم جعل له معادلة وسنن وطريق يسير عليه, وهذه المعادلة حينما ضبطها ونظمها تخلى عنها فهي تدور بنفسه.

ويجعلون ذلك كحال الأرقام الحسابية, إذا أراد الإنسان أن يوجد العشرة إما أن يوجد خمسة وخمسة أو يوجد تسعة وواحد أو يوجد سبعة وثلاثة أو يوجد ثمانية واثنين, أو يوجد مثلاً أربعة وستة فإن النتيجة حينئذ تكون واحدة إذا أراد أن يحصل رقم عشرة, فلابد أن يأتي مثل هذه المعادلات, إذا أراد أن يحصل مائة ونحو ذلك يأتي مثلاً بخمسة وخمسة وتسعين أو يأتي مثلاً بستة وأربعة وتسعين, فيأتي حينئذ تكون النتيجة.

قالوا: كذلك أيضاً السببي من جهة أفعال الناس, إذا أراد الإنسان أن يحصل على نتيجة يفعل بشيء من التصرفات فيحدث هذا, إذا أراد أن يكسر شيئاً يأخذ حجراً ثم يرمي به بمقدار ضرب معين فتحصل تلك النتيجة. أو إن الله خلق هذه معادلات, ثم تركها ليتصرف الناس ويحدثوا النتائج.

هذا كلام الفلاسفة كأرسطو، وغيره أخذ منه من يقول بهذا ممن يسمون بالمشائين, وهم الفلاسفة المنتسبين للإسلام وذلك كالكندي وابن سينا والفارابي وغيرهم الذين قالوا بمثل هذا القول, ولا شك أن هذا القول هو قول كفري, ويرون أن الإنسان يخلق أفعاله, وهؤلاء فيهم شبه بالمجوس الذين يجعلون في الخلق خالقين, الله هو الذي خلق الخلق, والخلق هم الذين يخلقون أفعالهم بغير رجوع إلى الله سبحانه وتعالى, تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً.

البراءة من أهل الباطل

الملقي: [قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم, وأنهم براء مني].

الشيخ: وهذا من عبد الله بن عمر عليه رضوان الله رسالة حملها أولئك إلى الذين يقولون بأنه لا قدر, وأن الأمر أنف, أنك إذا لقيت أولئك فأخبرهم يعني مع الوصف الذي تقول إياه فيهم أنهم يقرءون القرآن ويتقفرون العلم, فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم براء مني, أنه لا يوجد صلة بيني وبينهم وأنا من أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ.

وهذه إشارة إلى المفارقة وبيان الحق في حال ورود أقوال الباطل والبغي والضلال متعلقة في دين الله عز وجل فلابد من بيانها, ولهذا أيضاً لا ينبغي لصاحب الحق إذا ظهر له الحق أن يمنعه هيبة شخص يتعلم العلم أو يقرأ القرآن أن يبين الخطأ له والزلل في دين الله سبحانه وتعالى, خاصة إذا كان ذلك مما يتعلق في أمور الأصول حتى لا يتمدد دين الله سبحانه وتعالى.

الحلف عند الأمور العظام

الملقي: قال رحمه الله: [قال ﷺ: والذي يحلف به عبد الله بن عمر ..].

الشيخ: وهنا من باب التعظيم قال: والذي يحلف به عبد الله بن عمر ولا يحلف إلا بالله سبحانه وتعالى, فذكر في هذا الذي يحلف به عبد الله بن عمر ما يتعلق بأسماء الله عز وجل كلها, أراد أن يبين المسألة وأن يقرر حكمها بالقسم, وهذا يكون في المسائل العظيمة المتجلية؛ لماذا؟ حتى يسكن السائل ويبين ويخلص الطمأنينة فيه, ويبين ضلالة الضال المنحرف عن علم الله سبحانه وتعالى أنه خرج عن مراد الله جل وعلا.

والذي يحلف به عبد الله بن عمر يعني: ما يحلف به من أسماء الله بالله العظيم الحي القيوم الخالق الرازق وغير ذلك أقسم عبد الله بن عمر عليه رضوان الله تعالى على هذه المسألة, وأنهم على الضلال, أنهم ليسوا من دين الله عز وجل في شيء, وفي هذا الإشارة إلى أن الإنسان إذا أراد يؤكد معنى من المعاني الظاهرة التي فيها ريب أو شك في كلام السامعين أن يقسم بأمر الله, أن يقسم بالله سبحانه وتعالى لبيان أمره جل وعلا في كتابه وسنة رسوله ﷺ حتى يدفع الريب والشك.

ويظهر والله أعلم أن عبد الله بن عمر أقسم هذا القسم لأسباب:

أولها: أنه ظهر من سؤال السائلين إجلالاً وتقديراً لأولئك الذين ابتدعوا في دين الله, فإنهم يقرءون القرآن ويتقفرون العلم, وهذا الإجلال ينبغي من عبد الله بن عمر أن يأتي بالقوة ويكسر هذه الهيبة الموجودة في نفوسهم, وذلك لشدة ضلال أولئك فاحتاج إلى القسم.

الأمر الثاني: أن هذه المسألة وهي مسألة القدر هي من المسائل العظيمة الجليلة في الدين, والإيمان بالقدر ركن من أركان الايمان, وإذا احتاج الإنسان إلى بيانه والناس في حال ريب أو شك وجب عليه أن يبين الحق ولو حلف في ذلك فإن هذا حسن حتى يؤكد الحق في قلوب الناس.

كذلك أيضاً تهييباً لمن وراءهم, وكذلك دفعاً للظنة التي تقع في نفوس البعض أن يظن أن المتكلم بهذا تكلم وهو شاك ومستريب وغير محرر للمسألة ولم ينظر في دليلها, أو أن المسألة خلافية فيها قولان محتملة لهذا القول محتملة لغيره, فأحسم ذلك بأمر قطعي وهو بيان الحجة مع القسم المغلظ واليمين عليها حتى يبين الحق بحجته ودليل ذلك.

أهمية الإيمان بالقدر

الملقي: [لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر].

الشيخ: وهنا في قوله: لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر, هذا إشارة إلى كفر من قال بنفي القدر؛ لأن الله عز وجل لا يقبل من المحسن إحسانه إذا كان كافراً؛ لأن الكفر يحول بين الإنسان وبين ربه, ولهذا يقول الله عز وجل في كتابه العظيم: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر:65]، فعمل المشرك يزيله الله سبحانه وتعالى ولو كان ماضياً عظيماً على مدى عقود طويلة, فكيف بعمل يفعله الإنسان للمرة الواحدة وهو في حال كفره؟

لهذا نقول: إن الكفر يزيل العمل الصالح الماضي كله, فكيف إذا فعل الإنسان طاعة وهو في حال كفر, فأزال الطاعات التي هي سابقة بالكفر, فإذا كان الإنسان مؤمناً وبلغ الأربعين والخمسين والستين ثم كفر بالله سبحانه وتعالى, فكفره أحبط عمله الصالح في الخمسين السنة. فكيف بعمل يفعله الإنسان وهو في حال كفر؟ فالله عز وجل لا يقبل منه ذلك.

وفي قوله: لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر؛ لأن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان, ولا يصح إيمان الإنسان إلا به.

ومن الأمور المهمة أيضاً: أن قواعد الشريعة وأصول الإسلام وأحكام الدين لا علاقة للعاطفة بها, ومعنى هذا أن عبد الله بن عمر عليه رضوان الله حينما ذكر مثل أحد ذهباً, وهذا محال أن يكون لأحد من البشر مثل أحد ذهباً فأراد أن يذكر أعلى مثال حتى يفهم ما دونه, مهما تفعل من أمور الصالحات فإنها لم تبلغ هذا المبلغ فهي إذاً باطلة.

فالعاطفة التي توجد عند بعض العامة وهي أنهم إذا علموا أن فلاناً يتصدق أو فلاناً يرحم الناس يميط الأذى عن الطريق, وكذلك أيضاً يداوي الناس أو يحسن إليهم إذا كان كافراً أو خطر في أمر من أمور الإسلام المعلومة من دين الإسلام بالضرورة يميل للتعرف فيقول: إن الله عز وجل يرحم هذا لأجل مثلاً أنه يعالج الناس أو مثلاً يحسن إليهم, ويرحم ضعيفهم, أو ينفق ويتصدق للناس ويعبد لهم الطرقات ويعالج المرضى ويكفل الأيتام وغير ذلك, أو خلقه حسن هذه عواطف للإنسان فيها.

نقول: لا علاقة للكفر والإيمان بها.

ولهذا لما جاءت سفانة بنت عدي بن حاتم إلى رسول الله ﷺ, وذكرت أيضاً حال أبيها, وكذلك أيضاً في حال ابن جدعان لما كان في الجاهلية وكان له عكارة وكان أيضاً له إنفاق وإحسان, النبي عليه الصلاة والسلام بين أنهم أرادوا شيئاً فأدركوه, وذلك أنهم ما فعلوا ذلك ويرجون به ما عند الله سبحانه وتعالى.

لهذا نقول: إن قبول الأعمال والنجاة من حكم الله عز وجل على الإنسان بالكفر والإيمان أنه لابد فيه من ثبوت ذلك شرعاً لا بعاطفة الإنسان؛ ولهذا عبد الله بن عمر عليه رضوان الله بين أن الإنسان لو كان له مثل أحد ذهباً فأنفقه في سبيل الله, أحسن وعالج وعبد الطرق وكفل الأيتام إذا كان لا يؤمن بقدر الله فهو كافر بالله, إذاً: يعبد رباً غير الله, فهو ينفق لغيره.

إذا كان الإنسان ينظر للعاطفة، ما الفرق بين من ينفق ويداوي الجرحى ممن يعبد الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك ومن يعبد إلهاً لا يقدر شيئاً؟ لا فرق بين هذا وهذا؛ ولهذا عبد الله بن عمر عليه رضوان الله بين أن الله عز وجل يمحو عمل الإنسان حتى يؤمن بقدر الله سبحانه وتعالى.

آداب المتعلم من حديث جبريل

الملقي: [ثم قال: حدثني أبي عمر بن الخطاب ﷺ قال: (بينما نحن جلوس)].

الشيخ: وهذا أيضاً من رواية الصحابة عن الصحابة, وكذلك أيضاً فيه تشرف ابن عمر بروايته عن أبيه فذكره, مع إمكانه أن يروي ذلك عن رسول الله ﷺ فهو ثقة وأبوه كذلك وخليفة راشد, عليه رضوان الله من خيرة الصحابة وأجلائهم, ومع ذلك ذكر الرواية عن أبيه عن رسول الله ﷺ.

وهذا الحديث قد جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة، وجاء في مسلم من حديث عبد الله بن عمر عن أبيه, ولم يخرجه البخاري من حديث عبد الله بن عمر عن أبيه وإنما أخرجه من حديث أبي هريرة، وذلك أن هذا الحديث تارة يرويه ابن عمر عن النبي عليه الصلاة والسلام ولا يذكر أباه, وتارة يذكر أباه عن رسول الله ﷺ, وهذا هو الذي دعا البخاري رحمه الله إلى عدم إخراجه لتشدده واحترازه في باب الرواة.

الملقي: [قال: (بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر)].

الشيخ: وهنا في هذا حكاية من عمر بن الخطاب عليه رضوان الله لابنه عبد الله فيه حرص الصحابة عليهم رضوان الله في تحديث أبنائهم بالوقائع التي تكون بين رسول الله ﷺ وبينهم, والحوادث التي شهدوها, والأقوال التي سمعوها فيحدثون به أبناءهم, وعبد الله بن عمر مع كونه غلاماً عند وفاة رسول الله ﷺ إلا أن في حرص عمر بن الخطاب عليه رضوان الله في إبلاغه

أمثال هذه الأحكام وهذه المسائل وهذه الأحاديث حرصاً ظاهراً في تعليمه وإرشاده ودلالته إلى تلك المعاني.

وفي قوله: "بينما نحن حول رسول الله ﷺ" في هذا إلى أنهم يجلسون كحال الحلق حول النبي عليه الصلاة والسلام يتحلقون ويستمعون إليه.

وفي هذا أيضاً حرص الصحابة عليهم رضوان الله على ملازمة النبي ﷺ والجلوس إليه خاصة في مسجده, ولهذا النبي عليه الصلاة والسلام يقول: (ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة)، ومعنى روضة من رياض الجنة يعني: موضع للتعليم والذكر ولهذا جاء في السنن قال: (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا, قال: وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر) .

إذاً: فالمراد في قول النبي عليه الصلاة والسلام: (ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة)، يعني: هلموا واجلسوا إليها لتغنموا بذلك الجائزة, ولهذا جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام كما في الصحيح من حديث أبي هريرة قال: (كنا حول رسول الله ﷺ حلقة, فجاء ثلاثة نفر, فأما أحدهم فوجد فرجة في الحلقة فجلس فيها)، والنبي يتحدث, (وأما الثاني فلم يجد فرجة فجلس خلفهم, وأما الثالث فأدبر ذاهباً, فلما قضى رسول الله ﷺ الحديث قال: ألا أخبركم خبر النفر الثلاثة؟ أما الأول فآوى إلى الله فآواه الله, وأما الثاني فاستحيا فاستحيا الله منه)، يعني: تردد, استحيا أن يخرج واستحيا أن يقول للناس ويتحدث معهم بأن يفسحوا له فاستحيا وجلس خلفهم, وذلك أن الناس إذا كانوا حلقة واحدة بانتظام جلوس الإنسان خلفهم منفرداً فيه نوع سكوت, ولكنه استحيا من تركها, وحرص عليها فاستحيا فاستحيا الله منه, (وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه) .

ولهذا يذكر غير واحد من العلماء على أن الإنسان إذا سمع حلقة من حلق الذكر وجاءها فإنه يجب عليه أن يجلس فيها ولو قليلاً إذا كان فيه إلا كلام الله أو سنة رسول الله ﷺ, ولا يجوز له أن يخرج, وأما جلوسها إلى التمام فهذا بحسب حال الإنسان وقدرته واستطاعته؛ ولهذا النبي عليه الصلاة والسلام قال: (فأعرض فأعرض الله عنه)، يعني: بإمكانه أن يجلس ولو يسيراً ويذهب فاستحق بذلك الإعراض كإعراضه عن أمر الله سبحانه وتعالى.

الملقي: [(لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد)].

الشيخ: وفي هذا أيضاً دقة نظر الصحابة, ومعرفتهم للقادم إلى رسول الله ﷺ والمنصرف عنه أنه جاءه رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر, وهذا استشكال, وذلك أنه جمع بين المتناقضات في المعتاد, وذلك أنه إذا كان شديد سواد الشعر, وشديد بياض الثياب ولا يعرفه منا أحد, يعني: أنه من المدينة لابد أنه نعرفه, ومن خارج المدينة فكيف يكون شديد بياض الثياب ولم يكن مسافراً, المسافر يكون أغبر وأشعث فكيف شعره شديد السواد, وثوبه شديد البياض, ثم لا نعرفه, من أين أتى؟

فهذا فيه لفتة إلى شد انتباههم إلى هذا القائل, ولو قدم إليهم وهو أشعث أغبر ما شد انتباههم لأنهم يعلمون أنه مسافر من

ضمن العابرين, ولكن جمعت حاله نوع من المتناقضات في الظاهر حتى يلفت انتباه الجميع لهذا الغريب الذي اجتمع في وصفه شيء لا يجتمع في وصف أحد عادة حتى يلتفت الانتباه إليه.

وفي هذا أثر المشاهدة مع الكلام أن الإنسان إذا تكلم ينبغي له أن يشحذ همم السامعين إليه ليروه حتى يستوعب المراد من قولهم, وأما مجرد الكلام من غير التفات وإدراك لحاله فإن ذلك يضعف من أمر المعلوم الذي يريد الإنسان إيصاله.

فجعل الله سبحانه وتعالى حال جبريل عليه السلام على مثل تلك الحال وذلك الوصف حتى ينتبه الصحابة إليه فيرقبوا لحظه وقوله وفعله؛ ولهذا نلحظ في رواية عبد الله بن عمر عن أبيه في حال جبريل أنه نقل وصف حال جبريل مع النبي صلى الله عليه وسلم بوصف دقيق بحركاته وسكناته وكيف قرب وكيف انصرف, وماذا سأل؟ بترتيب وانتظام, وذلك لأن هذا الرجل استدعى الاهتمام فأرعوه سمعهم وكذلك بصرهم فجمعوا من المعاني ما قاله ولم يفتهم في الظاهر من ذلك شيء.

الملقي: [(حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه, ووضع كفيه)].

الشيخ: ولهذا أيضاً من المعاني والمسائل أنه لا حرج على الإنسان إذا قدم إلى قوم مجتمعين أن يبادر بحاجته مباشرة, وذلك أنه ربما يكون أحوج من الجالسين, وربما يكون الجالسين لديهم مسألة من المسائل أو يتحدثون بحديث فيقول الإنسان: أني إذا بادرت ربما كانوا في حديث أو ربما كانوا منسجمين في شيء فآتي أن أقاطعه, الأصل في ذلك أن يستأذنه إلا إذا أراد أن ينبههم إلى أمر عظيم؛ ولهذا جبريل عليه السلام بادر إلى رسول الله ﷺ, وكأنه جاوز هؤلاء إلى رسول الله ﷺ ثم جلس إليه فبادرهم وما استأذن من أولئك الجالسين في حقه أو حقهم من رسول الله ﷺ.

الملقي: [(فأسند ركبتيه إلى ركبتيه, ووضع كفيه على فخذيه)].

الشيخ: وهذا من جلسات الأدب بين التلميذ والمعلم, وذلك الجلوس على الساقين, وافتراشهما فيجلس الإنسان مثل هذه الجلسة نوعاً من التواضع والإجلال للعالم, فجلس إلى رسول الله ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه, وفي هذا سنة إذا أراد الإنسان أن يسأل أحداً جالساً أن يجلس معه, ألا يسأله وهو قائم وذاك جالس, أن يجلس معه, وإذا كان قائماً أن يقوم معه إجلالاً له, وألا يبقى قائماً حتى لا يدخل هذا في دائرة التعظيم فيكون السائل قائم والمسئول جالس, فهذا فيه نوع تعظيم.

ويستثنى من ذلك ما كان على أمور العجلة فيسأل الإنسان سؤالاً ويريد جواباً بنعم أو لا أو يجوز أو لا يجوز على سبيل التعلم, ربما لا يستدعي من ذلك دروساً كذلك أيضاً في حاجة المتحدث أو المعلم إذا أسمع لغيره حينما يكونون جالسين وهو قائم فيقوم على المنبر ويحدثهم وهو قائم وهم جلوس يريد من ذلك الإسماع.

وفي هذا شرع للخطيب أن يكون قائماً وشرع للمنبر أن يكون أيضاً على عتبات حتى يسمع غيره؛ ولهذا نقول في حال جبريل لما جاء إلى رسول الله ﷺ وجلس إليه وأسند ركبتيه إلى ركبتيه من أمور التواضع، وكذلك أيضاً فيه إشارة إلى أنه ينبغي أن يدنو

السائل من المسئول والتلميذ من المعلم حتى يفهم عنه ويعقل منه.

وفي هذا أيضاً لطيفة أن جبريل لما جاء إلى رسول الله ﷺ جاء ودنا منه يريد أن يشعره أني بحاجة إلى أن أفهم جميع الجواب وألا يفوتني منه شيء, وكأنه قرب من رسول الله أشد من قربهم جميعاً إليه, يعني: لأني أسأل سؤال المستعلم, وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي للإنسان ولو كان عارفاً, وإذا أراد أن يعلم غيره أن يتواضع عند المعلم ولو كان يعلم تلك المسائل, لا يقول: إني أنا أعلم هذه المسائل فلا أحتاج إلى السؤال, لا يسأله الجاهل فقط, بل قد يسأل العالم عالماً آخر؛ لماذا؟

لا يريد أن يعلم, ولكن يريد أن يعلم الناس, يفتح له مسائل أخرى فيريد أن يسأل, ولهذا يستحسن أن يسأل, ولا يبين أنه يعلم, فيقول: أريد أن تبين للناس وأنا أعلم, أو يظهر نوع من النية للعالم أو المعلم فالأولى له أن يسأل كحال المستفهم الجاهل؛ لماذا؟ حتى يخرج العالم ما عنده من العلم, لأن العالم لديه علم, وهذا العلم كحال, إذا قلت: أبديت أنك جائع ومفتقر إليه أخرج كل ما عنده إكراماً له. وإذا أبديت أنك في شبع ومرتوي فإنه لا يعطيك إلا شيئاً يسيراً؛ لأنك أظهرت في ذلك الغنى وعدم الحاجة إليه.

ولهذا كان السلف عليهم رحمة الله ينهون عن مراء العالم, وفي هذا هو أن يسأل الطالب العالم بحال الند والمناظرة وغير ذلك وهو يشهد, كذلك أيضاً أن يبين الطالب للعالم أنه يفهمه هذه المسألة حتى يكون صاحب خطوة عند العالم, وهذا يحرمه علماً كثيراً؛ لأن بعض المتعلمين يبحث مسألة من المسائل مسألة علمية ويحررها ثم يأتي ويناظر فيها العالم, هو لا يحسن إلا هذه المسألة, فيريد أن يبين أنه تفوق على العالم بهذه المسألة هذا يحرمه علماً كثيراً في غير المسألة يحجب العالم عنه.

ولهذا أبو سلمة يقول: مارينا عبد الله بن عباس فحرمنا علماً كثيراً, كيف حرم علماً كثيراً؟ يعني: أخذنا نماريه بالعلم بمسائل نحسنها حتى لم يخرج العلم الذي عنده؛ لأننا أظهرنا علمنا بمسألة فظن أننا نعلم غيرها فمنعنا العلم الذي عنده فما نجهله من تلك المسائل؛ ولهذا نقول: إن طالب العلم والمتعلم لا يستوي في علمه وكذلك أيضاً يتحصل له علم حتى يظهر الجهالة عند العالم حتى يخرج العالم كل ما لديه فيستخدم وسعه في تلك المسألة ويبسطها.

كذلك أيضاً من اللطائف ومن آداب المتعلم مع العالم أنه إذا سأل مسألة ثم أجابه العالم بجواب يعرفه ألا يقول: أنا أعرف هذا الجواب ولكني أريد شيئاً آخر, بل يسأله عن شيء آخر ولا يبين أنه عرف هذا لماذا؟ لأن هذا الجواب هذه المناظرة تؤثر عليه إذا سأل مرة أخرى, وإذا سأل مرة أخرى فإن هذا يؤثر على أداء العالم وإجابته له.

الملقي: قال ﷺ: [(وقال يا محمد!)].

الشيخ: وهنا أيضاً في حال جبريل ذكر قال أنه وضع كفيه على فخذيه, حمل بعض العلماء هذا المعنى على وجهين, منهم من قال: إن جبريل وضع كفيه على فخذي رسول الله ﷺ, فأسند ركبتيه إلى ركبتيه, ثم وضع الكفين على فخذي رسول الله ﷺ.

ومنهم من قال: إن جبريل وضع كفيه على فخذيه هو إظهاراً من التواضع والأدب بين يدي المعلم, وفي هذا معنى لطيف أن السائل إذا سأل العالم ينبغي ألا يحدث حركة فوضوية حتى لا يشغل العالم عن الجواب, فيكون في سكينة تامة حتى يخرج العالم ما يريد من مسألة؛ ولهذا جبريل بقي على ذلك ووضع كفيه على فخذيه, وكان في سكينة تامة حتى يخرج ذلك الجواب التام.

وعلى المعنى الأول وهو أن جبريل وضع كفيه على فخذي رسول الله ﷺ يحمل هذا المعنى إلى الانتباه والحرص على سماع الجواب, ولهذا النبي عليه الصلاة والسلام إذا أراد أن يلفت انتباه أحد على مسألة أو استيعابها إما أن يمسك بيده، أو يضع يده على منكبه ليفهم عنه.

وخطاب الإنسان للجماعة يختلف عن خطابه للواحد, للواحد أشد وأقوى بخلاف غيره, فأنت إذا سألك سائل وأنت تسير أو قائم ثم أجبت يختلف عن جوابك إذا أخذت بيده ثم قبضتها, أو وضعت يدك على كتفه.

جاء في الصحيح وكذلك أيضاً في السنن من حديث عبد الله بن عمر أن النبي عليه الصلاة والسلام وضع يده على كتفيه ثم قال: (يا ابن عمر كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) .

هذا الأمر في وضع النبي ﷺ يده على كتف عبد الله بن عمر ثم يخاطبه بهذا الخطاب إشارة إلى أنك انتبه أني أقصدك أنت بهذا الجواب فأرعن سمعك, فهذا يدفعه إلى الانتباه, ولهذا ابن عمر فيما بعد ذلك لما حدث بهذا الحديث حكى حتى حكاية وضع النبي ﷺ على كتفه, وضع النبي عليه الصلاة والسلام يده على كتفه, ما قال: قال النبي عليه الصلاة والسلام: (كن في الدنيا كأنك غريب)، فقط, لأن هذا هو المقصود.

لكن لأن هذا الأمر رسخ في ذهنه, وأن النبي ﷺ وضع يده على كتفه ذكر ذلك لأن ذلك له تأثير في استيعاب هذا الأمر.

كذلك أيضاً القبض باليد, كما في حديث معاذ بن جبل قال: (أخذ النبي عليه الصلاة والسلام بيدي ثم خرج معي فقال: يا معاذ إني أحبك في الله, ألا أخبرك سورة)، الحديث وهو في المسند والسنن.

وفي هذا أن الإنسان إذا قبض بيد أحد ثم أخذ يحدث فيه شد للانتباه, وأنه حتى يدرك هذه المسألة وهو نوع من فهم مراد المتكلم, وهذا معروف في فطرة البشر, ولعل هذا هو المراد الذي قصده جبريل ليعلم الصحابة مثلاً بهذا الأدب, ويظهر أيضاً حاجته للجواب التام من رسول الله ﷺ.

الدرس الثاني

الإسلام هو الدين الذي جاء به رسول الله ﷺ وجاء به الأنبياء السابقون كذلك ولكن لما دخل التحريف الملل السابقة واستحال الوصول إلى الحق منها، كان لابد من بعث رسول يأتي بتجديدها, فلا دين حينئذ يستحق وصف الإسلام في الأرض كما يريده الله إلا ما جاء به رسول الله ﷺ, وسؤال جبريل هو عن أصل الأصول وكلي الكليات وهو الإسلام, وما يأتي من أحكام فهي تبع لذلك. فجبريل عليه السلام سأل النبي عليه الصلاة والسلام عن الكليات, وأعظم الكليات اتساعاً وهو الإسلام, ثم ما يدخل بعد ذلك في جزئياته وتفاصيله ومعرفتها من جهة مراتبها

- **فوائد ودلالات نداء جبريل للنبي ﷺ باسمه واستخباره لنفسه**

الملقي: [(وقال جبريل عليه السلام: يا مُحَمَّد ! أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ)].

- **الظهور بهيئة الغريب للاستماع لسؤاله وفهم مراده**

في قول جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ: يا مُحَمَّد! هنا وجه النداء إلى رسول الله ﷺ باسمه, والنكتة واللطيفة من ذلك أن جبريل ظهر هنا بصورة الغريب, والغريب عن البلد لا يعرف منازل أهلها ومراتبهم, وكذلك أيضاً كناهم وأوصافهم, لا يعرف تلك الأحوال, فوجه إليه بالخطاب باسمه. وأيضاً فإن الصحابة عليهم رضوان الله إذا أرادوا أن ينادوا رسول الله ﷺ توجهوا إليه بأشرف وصف يوصف به وهي الرسالة فيقولون: يا رسول الله أو يا نبي الله.

وهنا في قوله يا مُحَمَّد! أراد أن يوغل في الاغتراب عنه، وعدم معرفة نهجهم في نداء رسول الله ﷺ؛ حتى تكتمل الصورة في كونه غريباً عن بيئته, فيستمعوا لقوله الذي يريد أن يسأل به رسول الله ﷺ ويفهموا مراده؛ لأنه يريد من هذه الأسئلة التي يسألون بها النبي عليه الصلاة والسلام حتى يفهم السامعون المراد ويتفقهوا وينتفعوا بدين الله سبحانه وتعالى، فقال: (يا مُحَمَّد! أخبرني عن الإسلام؟). سأل رسول الله ﷺ واستخبره باسمه, وكذلك أيضاً في قوله: أخبرني توجه إلى الأمر لإعلام نفسه, وما سأله أن يعلمه وأن يعلم غيره.

واللطيفة والنكتة في هذا أنه أراد أن يستعلم لنفسه كأنه لا يعلم وهم يعلمون. وهذا أيضاً فيه إمعان في الاغتراب عنهم وعدم معرفة ما يعلمون, أو الأصل في كونهم أنهم عند رسول الله ﷺ يعلمون، وأنا أجهل لكوني بعيداً عنه.

- **تأكيد المعلوم لدى الصحابة من الأركان**

وهنا مسألة وهي أن جبريل حينما سأل النبي عليه الصلاة والسلام هذه الأسئلة في علم الله, وأيضاً فيما يعلمه رسول الله

ﷺ، وظاهر الأمر في أمر جبريل أنه يعلم أن الصحابة يعلمون هذه المسائل, وهي مسألة الإسلام وأركان الإسلام وأركان الإيمان هذه معلومة ما قبل هذا السؤال.

إذاً: ما الحكمة من هذا السؤال حتى ترد هذه الإجابة لإعلامهم بشيء يعلمونه قبل ذلك؟ فالصلاة معلومة الزكاة معلومة الصيام معلوم من أركان الإسلام, الحج معلوم, هذه الأشياء معلومة. كذلك أيضاً الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله, وظاهر أن الحديث أنه جاء؛ ولهذا سأل النبي عليه الصلاة والسلام عن الإحسان, وسأله عن أشراط الساعة, وهذه الأخبار والأنباء, وأحاديث أشراط الساعة كانت في آخر العهد النبوي في المدينة.

فالحكمة من سؤال جبريل عليه السلام بالاستخبار لنفسه, وظاهر الأمر في حال أن الصحابة عليهم رضوان الله تعالى يعملون، أنه يريد من ذلك تأكيد المعلوم لديه, فالتكرار لذلك يرسخ العلم, وفي هذا إشارة أيضاً أن دين الله سبحانه وتعالى للغريب والقريب أنه وحي, فإذا سأل السائل بدين الله عز وجل عن مسألة وهو من أهل البلد أو كان بعيداً، فدين الله سبحانه وتعالى في ذلك سواء لا يوجد فيه سرية ولا يوجد فيه خفاء، ولا يوجد فيه دقائق, لا يصح إيمان الإنسان إلا بها, وإنما هو دين ظاهر يجاب فيه السائل لسؤاله من أي جهة أو من أي بلد كان.

كذلك أيضاً فإنه لو سأل جبريل النبي عليه الصلاة والسلام ليعلم الصحابة في هذا نوع من ظاهر الاعتداد بالنفس, وهم يجهلون حال جبريل, وجبريل يعلم, فإنه إنما جاء العلم إلى رسول الله ﷺ بواسطة جبريل وإن كان العلم من الله سبحانه وتعالى.

إذاً: فجبريل وهو الواسطة علم قبل رسول الله ﷺ, ومع ذلك جبريل سأل العلم لنفسه, وما سأله للصحابة؛ لماذا؟ لأنه ما ظهر بصورة جبريل ظهر بصورة بشر وإنسان, وإذا ظهر بصورة إنسان ينبغي أن يكون الحال والكلام والسؤال مناسباً له؛ حتى لا يخرج خارجاً عنه, فسأل بما يليق ويناسب حاله, لا بما يناسب حاله الحقيقية وهي كونه الملك الذي جعله الله سبحانه وتعالى رسولاً إلى أنبياء الله جل وعلا، ينزل إليهم وحي الله سبحانه وتعالى.

- **سؤال جبريل عن الإسلام وما يدل عليه**

الملقي: [(قال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله, وأن محمداً رسول الله)].

الشيخ: هنا سأل جبريل النبي عليه الصلاة والسلام عن الإسلام, وهذا أول سؤال توجه به جبريل إلى رسول الله ﷺ، كان عن الإسلام, فقال: أخبرني عن الإسلام؟ الإسلام هو الدين الذي جاء به رسول الله ﷺ وجاء به الأنبياء السابقون كذلك, ولهذا يقول الله جل وعلا في كتابه العظيم: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ [آل عمران:19]. ويقول الله جل وعلا: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران:85].

ولكن لما دخل التحريف الملل السابقة واستحال الوصول إلى الحق منها، كان لابد من بعث رسوله ﷺ أن يأتي بتجديدها

وكذلك الإضافة إليها من الأحكام, فلا دين حينئذ يستحق وصف الإسلام في الأرض كما يريده الله إلا ما جاء به رسول الله ﷺ, فهو سأل عن أصل الأصول وكلي الكليات وهو الإسلام, وما يأتي من أحكام فهي تبع لذلك.

ولهذا في سؤاله الثاني عن الإيمان, قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه. من هو الله؟ الله هو أن تشهد أن لا إله إلا الله هو الواحد الفرد, أن لا معبود بحق إلا هو, بل هو الواحد المعبود بحق, وألا يعبد إلا هو سبحانه وتعالى, وأن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر خيره وشره وبالبعث بعد الموت.

فهم كليات الدين وعلاقته بفهم جزئياته

هذه أركان الإيمان قد يقول قائل: ما علاقتها بالإيمان بالله, والإيمان بذات الله سبحانه وتعالى وارتباطها بالإسلام الذي قال فيه النبي عليه الصلاة والسلام أول ما قال: أن تشهد أن لا إله إلا الله, وأن محمداً رسول الله.

نقول: الشيء يعرف بحقيقته في ذاته, وبيانه عن غيره, ولهذا إنما ضل الناس في الخلط بين هذه الحقائق, من هم الملائكة؟ هل هم بنات الله, أم ليسوا ببنات الله, أو خلق من خلق الله؟

بين أن الإيمان لا يكون إلا أن تعرف الله على وجه الحقيقة, وأن تعرف من هم الذين يخلط فيهم هذا الضلال من الجاهلين وأنهم ملائكة, هؤلاء الرسل هل يستحقون العبودية من دون الله عز وجل, أم إنما هم مبلغون عن الله, فتؤمن بالله على الحقيقة, وتؤمن بملائكته ومن هم, وتؤمن برسله ومن هم, وما هو مقدارهم الذي أمر الله عز وجل بأن يجعل لهم. فكل شيء يفهم بذاته, ويفهم كذلك بفهم غيره.

ولهذا لابد من فهم الكليات من جهة المعنى العام, ولابد من فهم الجزئيات حتى تتمايز فيما بينها؛ ولهذا الضلال إنما دخل في الأمم أنهم فهموا التعظيم بكليته من غير فهم مراتب الجزئيات, مراتب الجزئيات النبي معظم, الملائكة معظمون, الكتب معظمة, أيضاً ما يأتي مما يعظمه الله عز وجل في خلقه, هذا التعظيم إذا وجد في قلبك لهم ولم تميز مراتب التعظيم وأنواعه وأجناسه فإنك تقع في الخلط, فتجعل الملائكة بنات لله سبحانه وتعالى, تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً, تجعل النبي وهو عبد ورسول تجعله رباً وإلهاً فيعبد كما عبد النصارى عيسى ابن مريم فجعلوه إلهاً من دون الله عز وجل.

ولهذا نقول: إن فهم الكلي العام لا يجعل الإيمان مستقراً في قلب الإنسان, لابد من فهم مراتب التعظيم, وفهم هذه الجزئيات, ولهذا ثمة تلازم بين مسألة الإسلام ومسألة الإيمان وهي في البيان والتفصيل فيها؛ لهذا كان سؤال جبريل أول ما سأل عن الإسلام فقال: أخبرني عن الإسلام؟ يعني: الذي تدعو إليه حتى ألج إلى تفاصيله, ولهذا نقول: إنه ينبغي لطالب العلم إذا أراد أن يتعلم أن يفهم الكليات قبل الجزئيات.

فجبريل عليه السلام سأل النبي عليه الصلاة والسلام عن الكليات, وأعظم الكليات اتساعاً هو معنى الإسلام, هو المعنى العام له, ثم أراد أن يدخل بعد ذلك إلى جزئياته وتفاصيله ومعرفتها من جهة مراتبها, كما بينها الله سبحانه وتعالى, فسأل جبريل النبي عليه الصلاة والسلام عن الإسلام فقال: أخبرني عن الإسلام؟

معنى الإسلام

الإسلام إنما سمي إسلاماً لأنه استسلام لله سبحانه وتعالى وانقياد له جل وعلا بالطاعة, وخلوص من الشرك, هذا هو حقيقة الإسلام أن يستسلم الإنسان لله سبحانه وتعالى، بعبادته وحده لا شريك له, كذلك أيضاً أن يبرأ من كل ند أو نظير أو شبيه أو مثيل له سبحانه وتعالى في ربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه وصفاته.

دخول الإسلام بالشهادتين

الإسلام قال له النبي عليه الصلاة والسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله, وأن محمداً رسول الله, لا يدخل أحد الإسلام إلا بهاتين الكلمتين وإدراك معناهما, وأما النطق بهما من غير إدراك للمعنى فلا يغني الإنسان شيئاً؛ لماذا؟ لأن الإنسان لا يقبل منه القول, ولا يقبل منه الفعل؛ حتى يقول ويفعل مع إدراك لما يقول ويفعل, وإلا يصبح فعل الإنسان كحال المجنون أو النائم أو السكران أو غير ذلك الذين يتحركون من غير إدراك لتلك الحركة.

كذلك أيضاً في قول الإنسان, الإنسان إذا تكلم بكلام وهو في حال نومه أو في حال جنونه أو في حال سكره، بمثل هذا ولو كان خيراً, هل يؤجر عليه؟ لا يؤجر عليه؛ لماذا؟ لأنه لم يدرك هذا المعنى ولم ينوه, ولهذا نقول: إن إيمان الإنسان وإسلامه لا يتحقق حتى ينطق بالشهادتين.

المراد من توجيه الخطاب لجبريل في إجابة النبي ﷺ عليه

قوله: أن تشهد أن لا إله إلا الله, هذا خطاب بين النبي عليه الصلاة والسلام وبين جبريل, والمراد به إعلام السامعين, وليس المراد به النبي ﷺ، وليس المراد به جبريل, وفي هذا إلى أنه يجوز أو يستحب للإنسان أن يظهر الإجابة, والسائل يظهر السؤال، فلا يريد المجيب الإجابة للسائل, ولا يريد السائل السؤال لنفسه ممن يجيب وإنما يريد غيره, وهذا نوع من التمثل أن يتمثل الإنسان بصورة الجاهل, وأن يوجه الإنسان الخطاب لأحد وهو يريد غيره ليعلمه بما يريد إعلامه.

ولهذا توجه الخطاب بأسلوب الفرد لما سأله عن الإسلام قال: أن تشهد أنت يا جبريل أن لا إله إلا الله, وأن محمداً رسول الله ﷺ.

خطاب الملائكة برسالة محمد ﷺ

الشهادة هنا توجهت إلى جبريل, هل جبريل مخاطب برسالة مُحَّد ﷺ حينما يبين له ذلك؟ جبريل ليس بمخاطب برسالة مُحَّد ﷺ اتباعاً, وإنما علماً وإيماناً بذلك, ولهذا نقول: إن الملائكة لهم اختيار أو ليس لهم اختيار؟ لهم اختيار, ولهذا حمدهم الله عز وجل وأثنى عليهم سبحانه وتعالى: ﴿ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم:6] .

الذي ليس له اختيار وليس له تصرف، ويسير من غير اختيار، لا يحمد إذا بدر منه فعل, كحال الحجر حينما تأتي به الرياح ويسير فلا تحمد الحجارة؛ لأنه سيرها وليس لها اختيار, ولكن إذا كان للإنسان اختيار أن يختار ثم اختار الخير ولم يختر غيره حمد على ذلك, والله جل وعلا جعل للملائكة اختياراً, وجعلهم لا يخرجون سبحانه وتعالى عن أمره, فحمدهم الله سبحانه وتعالى على ذلك.

ولهذا نقول: إن الملائكة ليسوا بمخاطبين برسالة مُحَّد ﷺ من جهة الاتباع, فلا يخاطبون بالصلاة ولا بالصيام ولا بالزكاة ولا بالحج ولا بغير ذلك من الشرائع, ولكن يخاطبهم الله سبحانه وتعالى أمراً بشيء من أجناس ذلك على سبيل المناسبة لا على أصل التشريع.

مثال ذلك: أن الله عز وجل يأمر الملائكة أن تقاتل مع مُحَّد ﷺ، إذاً فهو تشريع جهاد, فهل الملائكة حينما قاتلوا مع مُحَّد ﷺ قاتلوا اتباعاً لأصل التشريع أو أمراً استثنائياً من الله خاصاً؟ أمراً استثنائياً من الله سبحانه وتعالى خاصاً؛ ولهذا نقول: إن في قول جبريل للنبي عليه الصلاة والسلام أخبرني عن الإسلام, وإجابة النبي عليه الصلاة والسلام له في قوله: أن تشهد أن لا إله إلا الله, وأن مُحَّداً رسول الله, المراد بذلك هو الإيمان والعلم، وليس المراد بذلك هو الاتباع والاقتداء بأمر الرسالة, فالذين يؤمرون باتباع مُحَّد ﷺ هم الأنس والجن؛ ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:56] .

فما خلق الله عز وجل الإنس والجن وهم الذين تتوجه إليهم خطاب الرسل وخطاب النذر, ويجب عليهم حينئذ أن يتبعوا. ما عداهم من المخلوقات هل هم مخاطبون في ذلك أم لا؟

نقول: ما عداهم من المخلوقات ممن يخاطب بالتكليف ولديه إدراك هذا لا دليل على دخولهم في هذا, وإن وجد أو دلت بعض الأدلة على وجود من يدرك ويعقل من غير الثقلين, وخلق الله عز وجل لا يعلمهم إلا هو سبحانه وتعالى, ولهذا جاء في حديث سلمان الفارسي وغيره مرفوعاً وموقوفاً: (أنه ما من رجل يكون في بادية ثم يؤذن لنفسه ويقيم ويصلي إلا صلى خلفه من خلق الله ما لا يرى طرفاه)، من خلق الله, من هم هؤلاء الخلق؟ الله أعلم بهؤلاء.

ولكن الله سبحانه وتعالى وجه الخطاب في ظاهر النص إلى الثقلين من الجن والإنس, وهناك من مخلوقات الله سبحانه وتعالى ما يقطع بعدم دخولهم في هذا, وذلك لظواهر النصوص في الملائكة عليهم السلام, وأما الجواب هنا في توجيه الخطاب إلى جبريل

في قوله: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمَّداً رسول الله المراد بذلك هو العلم والإيمان بهذا.

وهذا الجواب أراد النبي عليه الصلاة والسلام على ما تقدم إعلام الصحابة.

معنى الشهادتين ومقتضيات دخول الإسلام بهما

أما الشهادة فهي إخبار بما في القلب, وأن ينطق بما في القلب اللسان, ولهذا يسمى الشاهد شاهداً، أنه شهد بشيء ثابت في قلبه فنطق به بلسانه, فلا يعتبر شاهداً حتى يتكلم, فإذا تكلم فهو أثبت وبين ما في قلبه واستقر وظهر به؛ ولهذا النبي عليه الصلاة والسلام يقول: (على مثل هذا فاشهد)، فما سماها شهادة حتى ينطق بها, مع أن العلم بها مستقر قبل ذلك.

ولهذا الذي يوجد في قلبه إيمان بالله وتصديق برسالته وبنبوة النبي عليه الصلاة والسلام والملائكة؛ لكنه لا ينطق بالشهادتين هل يعد مؤمناً؟ لا يعد مؤمناً؛ لأن الإيمان قول وعمل ونية, ولابد من وجود هذا في الإيمان, ولهذا أصل معنى الشهادة في قوله: أن تشهد أن لا إله إلا الله أن تخبر عما في قلبك وإلا أخذ الحكم من ظاهرك؛ لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى جعل الإيمان قولاً وعملاً, والناس مأمورون بأن يأخذوا بما ظهر من أمور الناس.

وفي قوله: أن تشهد أن لا إله إلا الله, لا إله إلا الله أي: لا معبود بحق إلا الله, وقد فسر هذا غير واحد من العلماء, وأوائل من فسر هذا هو ابن جرير الطبري رحمه الله, لا إله إلا الله أي: لا معبود بحق إلا الله.

وأن محمَّداً رسول الله ﷺ, وهنا في قول النبي عليه الصلاة والسلام: وأن محمَّداً رسول الله يأتي في بعض ألفاظ الحديث: (وأني رسول الله)، وأظهر في هذا بقوله: أن تشهد أن لا إله إلا الله, وأن محمَّداً رسول الله ﷺ, والشهادة للنبي عليه الصلاة والسلام بالرسالة أنه خاتم الأنبياء والمرسلين بعثه الله عز وجل للناس كافة, ختم به سائر الرسالات, وأنزل عليه كتابه الحكيم، القرآن الكريم, وجعله الله سبحانه وتعالى باقياً خالداً إلى أن يرث الله عز وجل الأرض ومن عليها.

صحة إيمان من لم يتمكن من النطق بالشهادتين

وهنا مسألة من المسائل وهي أن الإنسان إذا وقع الإيمان في قلبه وعرفه, ولكنه لم يتمكن من النطق بالشهادتين بلسانه؛ لعدم إدراكه للنطق كالأعجم الذي يدرك ويعلم ويؤمن بأن الله عز وجل واحد ولا معبود إلا هو, وأن محمَّداً رسول الله ﷺ فأدرك هذا المعنى, ولكنه لم ينطق بالشهادتين.

نقول: إن هذا لا يخلو من حالتين: الحالة الأولى: أنه استنطق فلم ينطق, أو علم ولو لم يستنطق, علم هو بهذه فلم ينطق بها

فنقول حينئذ: لا يثبت إيمانه حتى ينطق به.

وأما الحالة الثانية: فهو رجل لم يستنطق بالشهادتين ولم يعلم بلفظها, ولكنه علم بمعناها, فإذا سئل: من تعبد؟ قال: الله. وحده؟ قال: نعم. ومن هو نبيك؟ قال: نبيي مُحَمَّد. هذا مؤداها هو مؤدى أن تشهد أن لا إله إلا الله, وأن مُحَمَّداً رسول الله صلى الله عليه وسلم, فهل يثبت بذلك إيمانه؟

نقول: يثبت بذلك إيمانه على الأرجح ما لم يستنطق بالشهادتين فلم ينطق, أو يكون عالماً بها من جهة لفظها ثم لم ينطق بها فنقول حينئذ: هذه لها حالة, ويكون في ضمن هذا بعض المسلمين الذي يكون مثلاً من العجم ففهم بالإسلام وما فيه من معان وأحكام, وكذلك أيضاً من أصول عظام, واقتنع بهذا وقال: أريد أن أدخل في الإسلام, ولهذا يوجد في بعض العجم من يدخل الإسلام ويجهل من حوله أن ينطقه الشهادتين ثم يؤمن بأركان الإسلام والإيمان ويحضر الصلوات مع الناس ثم يموت.

وقد سئلت في مسألة في رجل من الهند كان وثنياً كعقيدة قومه ثم عرف بالإسلام فعرفه وقال: آمنت, وعرف برسالة مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم وآمن به نبياً، ولكنه لم يستنطق بالشهادتين وأخذ يصلي مع الناس ولكنه لا يدري ما يقول, إلا أنه تحقق في فهمه وإيمانه المراد من الشهادتين وفسر من حوله بإنطاقه بالشهادتين ثم علم من حوله بإسلامه ولتطرفهم قتلوه, فمات بعد أسبوعين من ذلك.

ويسألون عن حكمه هل يغسل ويكون من أهل الإسلام ويأخذ أحكامه من جهة الإرث وغير ذلك, أم يكون على ما هو عليه, مع قولهم أنه لم ينطق بالشهادتين إذ أنه لم يستنطق ولم يعلم بالتلفظ بها؟

فنقول: في مثل هذا أنه في ظاهر الأمر يأخذ حكم الإسلام, وهذا قد نص عليه غير واحد من العلماء كابن تيمية عليه رحمة الله.

اشتراط نفي الكفر السابق لمن دخل في الإيمان

وشهادة أن مُحَمَّداً رسول الله على ما تقدم أن يخبر الإنسان وأن يخرج ما في قلبه فيشهد فيقول: لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله, وهل كل من كان على غير الإسلام لا يدخل إلا بها أم لا؟

نقول: جاء في كلام بعض السلف الزيادة على ذلك في أمر النصارى أن يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله وأن أمه صديقة, وذلك لينفي الكفر القائم في ذاته في العقيدة السابقة في مثل هذا.

وهذا لو أخذنا به من جهة الأصل والمعنى هل يدخل في غيره من العقائد إذا كان الإنسان أراد أن يدخل في عقيدة التوحيد ودين الله عز وجل الذي جاء به مُحَمَّد ﷺ, هل لابد أن يصرح بالكفر بالنص على ما كان عليه ويعتقد فيما عداه؟

نقول: هذا هو الأصل ما لم يدرك معنى الشهادتين من جهة الحقيقة، وأنها ملغية ونافية لكل ما عداها مما مضى, وإنما قدم النبي عليه الصلاة والسلام الشهادتين في ذلك؛ لأن الشهادتين هي أول ما يدعى إليه, ولهذا النبي عليه الصلاة والسلام لما بعث معاذاً إلى اليمن كما جاء في الصحيحين من حديث أبي معبد عن عبد الله بن عباس قال النبي عليه الصلاة والسلام لـمعاذ بن جبل: (إنك تأتي قوماً أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله, وأن مُحَمَّداً رسول الله) .

فالشهادتان يختصران معنى التوحيد, ولهذا تسميان بكلمتي التوحيد, ولا إله إلا الله هي كلمة التوحيد, أي: لا معبود بحق إلا الله, ولهذا جاء في رواية البخاري قال: (فليكن أول ما تدعوهم إليه إلى أن يوحدوا الله)، أي: أن يفردوه بالعبادة سبحانه وتعالى, وهذا يدل على أنه أول ما يدعى إليه يجب أن يكون بتوحيد الله سبحانه وتعالى لا أن يتجاوزه إلى غيره من الفروع, إذ لا يصح من أحد عملاً فرعياً حتى يؤمن بالله وحده وحقه في العبادة وبرسالة مُحَمَّد ﷺ.

أداء الصلاة والحفاظ عليها

الملقي: [(قال ﷺ: وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة)].

الشيخ: هنا ذكر إقامة الصلاة قال: وتقيم الصلاة, أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّداً رسول الله وأن تقيم الصلاة, مسألة الصلاة انتقل النبي عليه الصلاة والسلام مما يتعلق بالشهادتين ولازمهما، وما يتعلق بالإخبار بما في القلب إلى عمل الجوارح.

أهمية الصلاة في الإيمان

وابتدأ النبي عليه الصلاة والسلام بأعظم أعمال الجوارح وهي الصلاة, وهي آكد الأعمال التي يفعلها الإنسان بجوارحه, وهذا دليل أيضاً على أنه لا يصح إيمان الإنسان إلا بوجود الإيمان القلبي وقول اللسان وعمل الجوارح, أما الإيمان القلبي وقول اللسان فهو على ما تقدم قول أن تشهد أن لا إله إلا الله, أن تخبر عما في قلبك أن الله لا إله إلا هو, وأن مُحَمَّداً رسول الله ﷺ.

إذاً: فتحقق الإيمان القلبي وقول اللسان ثم جاء بعد ذلك عمل الجوارح, وهو أن تقيم الصلاة, وهي أعظم الأركان العملية وهي الركن الثاني من أركان الإسلام, كما في هذا الحديث وكما في حديث عبد الله بن عمر أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّداً رسول الله, وإقام الصلاة, وإيتاء الزكاة, وصوم رمضان, وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً).

تقديم الصلاة على غيرها وحكم تاركها

الأركان أخذها العلماء من هذا الحديث وحديث عبد الله بن عمر وغيره, فسميت أركان الإسلام الخمسة, أخذت على هذا

المعنى, كذلك أيضاً فإن النبي عليه الصلاة والسلام إنما قدم الصلاة على غيرها؛ لأن إسلام الإنسان لا يصح إلا بأداء الصلاة على الأرجح, وقد ذكر النبي عليه الصلاة والسلام أحاديث كثيرة, وهي من الوحي في بيان كفر تارك الصلاة, ومن ذلك ما جاء في الصحيح من حديث جابر أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (بين الرجل وبين الشرك ترك الصلاة), وكذلك أيضاً ما جاء في حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة, فمن تركها فقد كفر), وغير ذلك.

وكذلك أيضاً ما جاء في حديث بشر بن المفضل عن الجريري عن عبد الله بن شقيق أنه قال: ما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون الشيء من الأعمال تركه كفر إلا الصلاة, كما جاء عند الترمذي ومُحَمَّد بن نصر في كتابه تعظيم قدر الصلاة.

وقد جاء عن غير واحد من أصحاب رسول الله ﷺ ما يدل على هذا, على كفر تارك الصلاة, كما جاء عند مُحَمَّد بن نصر حديث ابن سعد بن أبي وقاص أنه سأل أباه في قول الله عز وجل: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون:4-5]، قال: ما المراد بالساهين؟ قال سعد بن أبي وقاص: هو أن يؤخر الصلاة حتى يخرج وقتها, وليس هو الترك, فإنه إن كان تركاً كان كفراً.

ويتفق العلماء على أن تارك الصلاة كافر, ولكن يختلفون في الكفر, هل هو كفر أكبر أو كفر أصغر؟ كما أشار إلى هذا مُحَمَّد بن نصر, بعض العلماء يرون أن المقصود في هذه الأحاديث هو الكفر الأكبر المخرج من الملة, وهذا هو المترجح, وقد نص على ذلك الإمام أحمد رحمه الله, أي: نقل عنه ذلك في مواضع عديدة, جاء أيضاً عن الإمام الشافعي قد نقله عنه الطحاوي في كتابه مختصر اختلاف العلماء, وكذلك أيضاً نقله عن الإمام مالك رحمه الله ورواية عنه بكفر تارك الصلاة, وجاء أيضاً عن بعض الأئمة القول بعدم كفر تارك الصلاة, جاء ذلك عن أبي حنيفة عليه رحمة الله.

ولهذا نقول: إن النبي عليه الصلاة والسلام إنما قدم هذا الركن العملي على غيره لأهميته ومنزلته وفضله ومن وجوه تأكيده أيضاً وأهميته أنه ما من شرعة من الشرائع إلا وأمر الله عز وجل بالصلاة فيها, فهي تشترك فيها سائر الشرائع, ولكن تختلف من جهة عدد ركعاتها وأوقاتها وهيئاتها, فمنهم من يقول: إن بعض ركعات الشرائع أنها تكون بسجدة واحدة, ومنهم من يقول ركوع بلا سجود, وبعضهم يأخذها في بني إسرائيل كما في قول الله عز وجل لمريم: ﴿ وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [آل عمران:43] . قالوا: هو ركوع لا يكون عنده سجود, ومنهم من يقول: إن ذكر الركوع لا يلزم من ذلك هو نفي السجود باعتبار أن من ركع سجد.

ونقول: إن الاختلاف بينهم من جهة الأزمنة, وكذلك أيضاً عدد الركعات أو ربما أيضاً بعض الصفات والأذكار التي تكون في الصلاة, أما الأصل فالصلاة شرعها الله سبحانه وتعالى لسائر أنبيائه وأمر بها الأمم. والشريعة إذا اشتركت بها سائر الشرائع فهذا دليل على أهميتها وجلالة قدرها.

كذلك أيضاً في هذا الحديث قال: أن تقيم الصلاة, ما قال: أن تؤمن بالصلاة, أن تؤمن أن الله أمرك بالصلوات فقط, وإنما ذكر إقامة الصلاة, إقامة الصلاة أن تؤديها كما أمر الله سبحانه وتعالى, إذاً: الخطاب هنا توجه إلى إقامة الصلاة لا إلى الإيمان بها, فإن الإنسان إذا لم يؤمن بالصلاة, وأنها واجبة, فهو كافر بالله وإن أداها, فلو فرض أنه يوجد شخص يقول: إن الصلاة ليست بواجبة ولكنها مستحبة, وأنا أؤديها؛ لأنها مستحبة فقط فهو كافر بالله ولو أداها, وخير منه من يؤمن بها وجوباً ولا يؤديها, وهو أخف منه باعتبار أن ذاك جاحد وهذا معطل, والجاحد أشد من المعطل.

ولهذا إنما جاء الأمر بإقام الصلاة في قوله: وأن تقيم الصلاة, يعني: التي أمر الله سبحانه وتعالى بها, ويتفق العلماء على أن المراد بالصلاة هنا هي الصلوات الخمس, وذلك لأنها هي الركن الثاني من أركان الإسلام, وليس المراد بذلك ما يتعلق بالنوافل وما يتعلق بفروض الكفايات كصلاة الاستسقاء والخسوف والكسوف وغيرها مما يشرعه الله سبحانه وتعالى على غير وجه التأكيد والإلزام على الأفراد, وإنما المراد بذلك هي الصلوات الخمس, وهي المرادة في أوامر الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [البقرة:43], هذا أمر من الله سبحانه وتعالى بالإتيان بالصلوات الخمس.

والخطاب هنا أن تقيم الصلاة تتوجه إقامتها إلى الإنسان في صور:

أول هذه الصور: أن يؤديها كما شرع الله سبحانه وتعالى من جهة صورتها الظاهرة والباطنة.

الثانية: أن يؤديها جماعة, ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [البقرة:43]، أن تؤدى الصلاة على وجه الحقيقة كما أمر الله, وأن يكون ذلك أيضاً مع الراكعين, لا أن يكون الإنسان منفرداً بأدائه للصلاة.

إيتاء الزكاة

الملقي: [(قال ﷺ: وتؤتي الزكاة)].

الشيخ: وقوله هنا: تؤتي الزكاة فيها تجانس مع قوله: وأن تقيم الصلاة، ذكر الإقامة مع الصلاة وما قال أن تؤمن بالصلاة, كذلك أيضاً في قوله: أن تؤتي الزكاة, وما قال أن تؤمن بوجوب الزكاة, ذكر الإيتاء يعني: تخرج، لا مجرد الإيمان, وبه نعلم أن الإسلام يتعلق بالأعمال الظاهرة, ولهذا جاء عن غير واحد من السلف قال: إن الإسلام علانية والإيمان السر, يعني: الإيمان يطلق على العمل الباطن في حال اجتماع الاسمين، والإسلام يطلق على العمل الظاهر. فإذا انفردا حمل كل واحد منهما معنى الآخر.

المقصود بالزكاة وفيما تكون

وفي قوله هنا: وتؤتي الزكاة، المراد بالزكاة هي إخراج نصاب المال الذي أوجبه الله سبحانه وتعالى في مال الإنسان, والزكاة سميت زكاة من النماء والطهر, ولهذا يقال: فلان زكي، يعني: طاهر القلب, وكأن المال إنما هو ليس بطاهر حتى تخرج الزكاة منه, وإلا يبقى فيه النجس أو غير ذلك, ولهذا نقول: إن الأموال لا تطهر إلا بأداء زكاتها.

في قوله هنا: أن تؤتي الزكاة, الزكاة تكون في الأموال، يعني: من النقدين من الذهب والفضة, وتكون في عروض التجارة, وتكون في بهيمة الأنعام, وتكون أيضاً في الزروع والثمار, والمراد بذلك هي الزكاة الواجبة, والزكاة الواجبة التي أوجبها الله سبحانه وتعالى في الأموال، منها ما يشترط فيه دوران الحول, ويحمل في ذلك حديث عائشة عليها رضوان الله تعالى كما في السنن قال: (ليس في مال زكاة حتى يحول عليه الحول), والمراد بهذا ما يتعلق بالنقدين من الذهب والفضة وما في حكمها, وكذلك أيضاً من بهيمة الأنعام, وكذلك أيضاً عروض التجارة.

وأما بالنسبة للزروع والثمار فإن الله عز وجل أوجب الزكاة فيها عند حصادها, وذلك أن من الزروع والثمار ما تحصد في العام أكثر من مرة فلها موسمان, ومنها ما له موسم واحد, ومنها ما هو له أكثر من ذلك خاصة مع تطور ما يسمى بأحوال الناس أو البيئات ما يسمى بالبيوت المحمية بحيث توضع لها بيئات، فالأصل في الزروع في الغالب أن تكون لها حولاً واحداً فتخرج في ذلك.

ولكن تهيأ لبعض أنواع الزروع والثمار بيئات وأجواء، فحينئذ يستطيع الإنسان أن يخرجها في أكثر من عام حينئذ يجب عليه في كل عام, وجعل الله سبحانه وتعالى في ذلك لكل نوع من هذه الأنواع نصاباً يقدره الله جل وعلا تخرج فيه, والكلام على هذا يطول.

زكاة حلي المرأة

وهنا جملة من المسائل تتعلق بهذا الباب, في أمور الزكاة, منها ما يتعلق بحلي المرأة الذي تلبسه ولو كان غالي الثمن, اختلف العلماء في إخراج زكاته على قولين: ذهب جمهور العلماء إلى عدم وجوب ذلك, وهذا قول
الإمام مالك والشافعي والإمام أحمد, وهو قول أيضاً جماعة من الصحابة, جاء ذلك عن عبد الله بن
عمروأسماء وعائشة وغيرهم إلى أن حلي المرأة ليس فيه زكاة ولو كان غالي الثمن. وجاء عن أبي حنيفة القول بوجوبه.

والصواب: عدم الوجوب, ولم يثبت عن رسول الله ﷺ القول بوجوب زكاة حلي المرأة, ولكن نقول: إن ثمة صوراً في حلي المرأة يجب فيه الزكاة, وذلك أن المرأة إذا اشترت ذهباً على صورة الحلي, ولكن ما أرادت به التزين هي أرادت به الادخار لكن صورته أنه حلي وتدخره وتأخذ سنوات لا تلبسه أو ربما ما شرته للبس وإنما أرادت أن تحفظ مالها من الضياع أو الصرف

أو غير ذلك فأرادت أن تجعله في ذهب فاشترت ذهباً على صورة حلي حينئذ نقول: إذا اشترته وتريد منه اللبس وقصدت ذلك إذا جاءت مناسبة لبسته فهذا لا يزكى، لو لم تأت المناسبة لسنة أو سنتين أو ثلاث سنوات، فالمناسبة يحكمها الظروف ومشيئة الله عز وجل إذا هيأ ظروفاً في مثل هذا, فإذا لم يهيئ فإنها لا تلبس حينئذ نقول: إنه لا يجب فيه الزكاة.

أما إذا كان حلياً للادخار ولو كانت صورته حلياً فيجب عليها في ذلك أن تزكيه؛ لأنه مال مكنوز, فيجب عليها حينئذ الزكاة.

زكاة الدين

ومن هذه المسائل أيضاً ما يتعلق بالدين الذي يكون على الإنسان, بعض الناس يكون عليه دين أو له دين, وهاتان حالتان: الحالة الأولى: أن يكون على الإنسان دين فهو مدين, فالدين في هذا إذا كان دين الإنسان أكثر من ماله فإنه يخصم الدين الذي عليه وبه يعرف المال الذي لديه, هل المتبقي يكون أكثر مما يجب فيه الزكاة أو أقل, إذا كان دون ذلك فلا يجب عليه الزكاة كالذي مثلاً لديه ألف, وعليه دين ألفين هذا لا يجب عليه الزكاة.

أو شخص مثلاً عليه دين, وهي مثلاً خمسمائة, ولكن لديه مثلاً ألف, فإنه يزكي خمسمائة, وأما الدين الذي عليه خمسمائة فإنه يسقطها من أصل ماله ويخرج المتبقي في هذا, وهل يدخل في هذا الأقساط والقروض الميسرة, بمعنى أن الإنسان يدفعها قروضاً على مدة خمس سنوات أي: ليست عاجلة.

نقول: يدخل في هذا أيضاً على الأظهر لاحتمال أن الذمة مشغولة بها, والشريعة تتشوف إلى التعجيل بقضاء الدين ولو كان على التيسير, فلو مات الإنسان قبل قضائها، ولو كانت منجمة لخمس سنوات فإن نفسه تبقى رهينة لذلك, فالشريعة تتشوف إلى قضاء الدين.

وأما الحالة الثانية: إذا كان للإنسان دين عند الناس, فهل يزكيه أم لا؟ نقول: هذا لا يخلو من حالتين:

الحالة الأولى: أن يكون لك مال عند الناس, قد أقرضته أحداً من الناس, وهذا الذي أقرضته غنياً, أو لم يكن غنياً ولكنه قادر على أن يعيد المال, فأقرضته وهو يحفظ المال ولم يستهلكه، كحال الذين يقرضون الناس لأجل أن يتاجر بهذا المال أو يضارب فيه مضاربة أو نحو ذلك, فإذا احتاج إلى هذا المال طلب المال فإنه يعيده إليه في أي وقت فهو رهين بطلبه.

حينئذ نقول: هذا المال كحال الوديعة ولو كانت بصورة دين, لأنك متى ما طلبته رجع إليك, فيجب عليك أن تزكيه ولو كان عند صاحبك فإذا زكاه الذي أقرضته إياه, فهل تزكيه أم لا؟ نقول: لا تزكه أنت فإنه يكفي الزكاة من طرف واحد.

أما الحالة الثانية: وهي إذا كان المال عند شخص غير مليئ فلو طلبت مالك لا يعطك إياه, وذلك لفقره أو استهلاكه أو ربما وضعه في تجارة طويلة الأمد لا يستطيع أن يعطيك إياه هذه اللحظة أو هذا الشهر أو الشهرين أو السنة أو نحو ذلك فإنه لا

تجب فيه الزكاة.

ومتى يزكيه؟ يزكيه إذا قبضه لعام واحد, فمثلاً بقي الدين عند الشخص لمدة خمس سنوات أو ثلاث سنوات ثم أعاده إليك, فإذا أعاده إليك تزكيه مرة واحدة التي هي العام المنصرم عند قبضه، ويسقط عنك ذلك بإذن الله تعالى.

زكاة الثمار والزروع

وأيضاً من المسائل المهمة في هذا ما يتعلق بالثمار والزروع وذلك أنها أيضاً على حالين, الزروع والثمار في هذا على حالين: ما سقته السماء, بمعنى أنه لم يتكلف فيه الإنسان، تسقيه السماء يقوم الإنسان مثلاً بوضع الحبوب في الأرض أو مثلاً يكون النخيل أو مثلاً الأشجار التي تثمر، يضعها الإنسان ويسقيها الله عز وجل من السماء، أو تشرب من باطن الأرض من غير كلفة من الإنسان، فإذا لم يكن ثمة كلفة من الإنسان فإنه يجب عليه أن يزكي في ذلك العشر, يعني: يخرج من ذلك 10%.

أما إذا كان في ذلك مشقة عليه يعني: بكلفة, قام باستخراج الماء, يقوم بإخراج المكائن أو حفر آبار أو وضع شبكات ري تقوم بأخذ كلفة عليه في مولدات كهرباء، أو مثلاً بتقطير أو بالسقيا باليد أو عن طريق مثلاً أجهزة أو سيارات أو غير ذلك، يقوم بإسقائها فإنه يخفف عليه في هذا, ويخرج من ذلك نصف العشر, وهو 5% كما جاء في حديث عبد الله بن عمر عليه رضوان الله تعالى في الصحيحين.

وأمر النبي عليه الصلاة والسلام هنا في قوله: وتؤتي الزكاة, إيتاء الزكاة كما هو ظاهر ركن من أركان الإسلام, ويأتي من جهة التأكيد والفضل بعد الصلاة, وهو في الواجبات المتعلقة بالمال, والصلاة متعلقة بالبدن, ولهذا نقول: إن أعظم الطاعات المالية هي الزكاة, وأعظم الطاعات العملية هي الصلاة, وإنما تعطف كثيراً الزكاة بالصلاة, ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [البقرة:43], يجعلها الله عز وجل تابعة وتالية للصلاة, وذلك لأهميتها, وأهميتها تكمن في تطهير الإنسان من جهة ذاته, وكذلك بركتها تكون عائدة عليه وفي ماله أيضاً, وفي ذلك أيضاً مدافعة للفقر الذي يكون في الناس, فهي أيضاً من الواجبات المتعدية إلى نفع الناس, فيسد في ذلك حاجة المحتاج.

الواجب على الإنسان في ماله من الصدقة غير الزكاة

ومن المسائل أيضاً: ما يتعلق بالواجب على الإنسان في ماله من غير الزكاة, هل يجب على الإنسان شيء في ماله يخرجه لغير ما يجب عليه عيناً من نفقة ذريته ونحو ذلك غير الزكاة, فهل يوجد صدقة واجبة على الإنسان؟ اختلف العلماء في هذه المسألة على قولين, منهم من قال بوجوب شيء في المال سوى الزكاة, وهي الصدقة لابد أن تتصدق بشيء غير الزكاة بدينار بدرهم، أن يخرج منك شيء.

من العلماء من قال: أنه لا يجب على الإنسان إلا الزكاة, وما عدا ذلك فيكون مستحباً, هما قولان في هذا, والأظهر في هذا

أنه لا يجب على الإنسان في ماله شيء إلا الزكاة, ولو وجب عليه شيء من غير الزكاة لجاء بنص صريح, وأما التأكيد والفضل في هذا فإن النصوص في ذلك كثيرة ومتظافرة, فـ (إن المؤمن في ظل صدقته يوم القيامة) .

صيام رمضان

الملقي: [(قال ﷺ: وتصوم رمضان)].

الشيخ: قوله هنا: وتصوم رمضان, ذكر الصيام بعدما ذكر الزكاة وهو أيضاً الركن الرابع من أركان الإسلام.

تقديم الصيام على الحج

والأصل في الروايات أن الصيام يقدم على الحج, وهذا هو المشهور في أكثر الطرق في حديث عبد الله بن عمربقول النبي عليه الصلاة والسلام: (بني الإسلام على خمس)، لكن جاء في رواية عند الإمام مسلم رحمه الله في كتابه الصحيح أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله, وأن محمَّداً رسول الله, وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتحج البيت وتصوم رمضان)، فقدم الحج على الصيام.

ولكن الذي يظهر والله أعلم أن هذه الرواية رويت بالمعنى، وأشهر الطرق وأصحها في ذلك هو تقديم الصيام على الحج, والصيام هو الإمساك، ويسمى صياماً؛ لإمساك الإنسان وامتناعه عن المفطرات وأصلها الأكل والشرب, ويلحق بذلك من أحكام المفطرات ما دل عليه الدليل.

تعلق ركنية الصيام بشهر رمضان

قال: وأن تصوم رمضان, وإنما ذكر رمضان ليعلق الركنية والحكم به, فمن صام في غير رمضان لم يكن مؤدياً الركن، كالذي يصوم في شعبان، يصوم في محرم أو يصوم مثلاً في شوال أو غيره، هذا لا يتحقق فيه الحكم وإنما الحكم يتعلق بمن صام رمضان، كحال الصلاة فالمراد بها هي الصلاة المكتوبة, فيجب على الإنسان أن يؤديها كما أمر الله عز وجل, المراد بذلك الصلوات الخمس, ما عدا ذلك فهي نوافل ومستحبات بمقدار ترتيب الشارع فيها, يجب على الإنسان أن يؤديها كما أمر الله سبحانه وتعالى.

وفي قوله هنا: أن تصوم رمضان، ذكر الصيام كحال ما ذكره في السابق قال: (أن تقيم) (أن تؤتي) (أن تصوم) يعني: لابد في ذلك من عمل, وهذا يؤيد ما تقدم الإشارة إليه وهي أن الإسلام إذا اقترن مع الإيمان فإنه يتعلق بالأعمال الظاهرة، بخلاف الإيمان فإنه إذا اقترن مع الإسلام فإنه يتعلق بالأعمال الباطنة, وإذا انفردا حمل كل واحد منهما معنى الآخر.

سبب تسمية رمضان بهذا الاسم

وقوله هنا: رمضان, رمضان إنما سمي بهذا الاسم قيل: لأنه إنما سميت الأشهر عند العرب في زمن الصيف, فكان في شدة حر فسمي به, وهو الشهر التاسع من السنة القمرية, فسمي برمضان، فأطلق عليه هذا الاسم فنزلت الشريعة على ما اصطلح عليه الناس.

ومن العلماء من يقول: إن رمضان إنما سمي برمضان؛ لأنه يرمض الذنوب ويحرقها؛ وذلك لفضل الصيام فيه, وهذا من كلام بعض العلماء من باب الاستنباط وإلا لا دليل عليه, ولا يثبت أيضاً أن رمضان من أسماء الله سبحانه وتعالى, فقد جاء في بعض الأحاديث كحديث أبي هريرة وقد رواه ابن أبي حاتم في كتابه التفسير أنه قال: لا تقولوا رمضان فإن رمضان اسم من أسماء الله, هو حديث منكر قد أنكره علي بن المديني وغيره, وإن كان قال بعض السلف في هذا: إن رمضان اسم من أسماء الله, جاء ذلك عن مجاهد بن جبر وغيره إلا أنه قول لا دليل عليه.

ولهذا يكره بعض الفقهاء أن يقال رمضان من غير إضافة شهر، فيقال: صام فلان رمضان, بل يقولون: صام فلان شهر رمضان, وكراهة ذلك جاء من بعض الفقهاء من الشافعية, والأرجح في هذا أنه لا يكره إذ لا دليل على أن رمضان هو من أسماء الله سبحانه وتعالى, وإنما هو شهر من الشهور, وأسماء الله عز وجل ما ثبتت في كتابه وأيضاً في سنة النبي صلى الله عليه وسلم وما عدا ذلك فهي أقوال تحتاج إلى بينة وإلى دليل ظاهر صحيح صريح.

اختلاف الصيام عن غيره ووجوب النية فيه

وكذلك أيضاً فإن صيام رمضان يختلف من جهة جنسه عن الصلاة وكذلك أيضاً الزكاة باعتبار أن الصلاة عمل, والزكاة أيضاً عمل في الأموال وتلك بالأبدان, أما الصيام فهو تروك, وهذا يدل على أن الأعمال في الشريعة وكذلك أيضاً في اللغة تطلق على الأفعال والتروك, فالفعل عمل الجوارح يدخل في دائرة الأعمال, وكذلك التروك وهو الإمساك يدخل في دائرة الأعمال.

فالظاهر من عمل الصائم أنه ما فعل شيئاً, فلم يؤد شيئاً من حركات أو نحو ذلك، إلا أنه امتنع عن شيء يعني: تركه, إذاً: فنقول: الصيام هو أعظم الأعمال التروكية, وأما بالنسبة للصلاة فهي أعظم الأعمال الفعلية البدنية التي يفعلها الإنسان, وأيضاً بالنسبة لعبادات الأفعال والتروك يجب فيها النية, وهذا ظواهر النصوص, بعض الفقهاء من أهل الرأي والقول ينسب أيضاً للأوزاعي أن أفعال التروك وأعمالها لا يجب فيها نية، وإنما الواجبات إنما تكون هي في الأعمال البدنية التي يفعلها الإنسان ولا تكون تروكاً.

والصواب في ذلك أنه واجب فيها, وهذا ظاهر في قول النبي عليه الصلاة والسلام في حديث عمر بن الخطاب: (إنما الأعمال بالنيات), بعض من يقول بعدم وجوب النية في التروك يقول: إن الصيام ليس عملاً وإنما تروك, وهذا قول ضعيف,

والمشهور عن أبي حنيفة خلافه, ولكن يختلفون في مسألة وجوب النية هل تكون من الليل أو تكون من النهار, وكذلك يفرقون بين الواجب المتعين وبين الواجب غير المتعين, فيوجبونه في الواجب غير المتعين للحاجة إلى تحليله, بخلاف ما كان معيناً, فإن العلم به كاف عن عقد النية هكذا يقولون.

حج البيت

الملقي: [(قال ﷺ: وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً)].

الشيخ: وقوله هنا: وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً, وهذا فيه على ما تقدم مشابهة ومجانسة لما تقدم من الأعمال لقوله: (أن تشهد) (أن تقيم) (أن تؤتي) (أن تصوم) (أن تحج) فذكر العمل, هذا يدل على أن المراد الأصل من جهة الإسلام أنه يكون متعلقاً بالعمل الظاهر الذي يلزم الإنسان فيه ما يعتقده في باطنه, تعتقد وجوب الحج فوجب عليك أن تعرف.

معنى الحج وأهميته

والحج في لغة العرب هو القصد, ويكون بكسر الحاء وفتحها فيقال: حج وحج ولهذا جاء في القراءة الصحيحة في قول الله عز وجل: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ [آل عمران:97], وجاء حَجُّ البيت, فكلها صحيحة والأصل في ذلك هو قصد البيت الحرام لعمل مخصوص في زمن مخصوص من شخص مخصوص, وهذا وهي على ما تقدم ركن من أركان الإسلام, وقد جاء الدليل في فضله ومنزلته, ويكفي أن الله سبحانه وتعالى قد ألصق فيمن تركه متعمداً وجاحداً لوجوبه بالكفر, ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ ﴾ [آل عمران:97]، وهذا ما جعل بعض العلماء يجعل تارك الحج متعمداً أنه كافر, هذا يروى عن بعض السلف, وكذلك أيضاً يقولون: هذا في بقية الأركان جاء هذا عن سعيد بن جبيركما رواه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة وفي إسناده ضعف عنه, وجاء أيضاً عن الحكم بن عتيبة وجاء أيضاً عن نافع وجاء أيضاً عن ابن حبيب من المالكية ورواية عن الإمام أحمد عليه رحمة الله, وقال به إسحاق بن راهويه، أن من ترك شيئاً من أركان الإسلام فهو كافر بالله سبحانه وتعالى, وجمهور العلماء على أن من ترك الصيام وترك الزكاة وترك الحج فهو مرتكب لكبيرة من كبائر الذنوب ما لم يكن جاحداً بوجوبها, وهو كافر لجحوده الوجوب.

وأما في قول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران:97], المراد بالكفر هنا هو الجحود, وهذا هو الظاهر أيضاً في حديث عمر بن الخطاب عليه رضوان الله كما جاء في حديث عبد الرحمن بن غنم عن عمر بن الخطاب عليه رضوان الله قال: لقد هممت أن أبعث رجالاً إلى الآفاق فينظروا من كان عنده جدة فلم يحجوا أن يضربوا عليهم الجزية ما هم بمسلمين، هذا الظاهر من حال عمر بن الخطاب عليه رضوان الله أنه لما ظهرت الردة ووقع قتال المرتدين، والناس كانوا في بلدانهم أوزاعاً, فمن الناس من لم يظهر منه شيء أو أظهر الموافقة ولكنه لم يكن من أهل العمل، فأراد أن يبين وأن يختبر أحوالهم في ذلك من جهة الاتباع والاقتداء فجعل ذلك فارقاً جعله أمارة ولم يجعله لذاته. هذا هو الأظهر في

فعل عمر بن الخطاب عليه رضوان الله, حمله على هذا بعض الأئمة, وهذا هو الأقرب.

وجوب الحج على الفور

وقد اختلف العلماء عليهم رحمة الله في الحج هل هو واجب على الفور أم هو واجب على التراخي؟ يعني: يجب على الإنسان أن يبادر عند إمكانه للحج, فإذا مر عليه عام وهو قادر على أداء الحج ومستطيع له, والسبيل سهل للوصول إلى الحج فلم يحج أنه آثم في تركه للحج, هذا قول لبعض العلماء, ثمة قول آخر أنه واجب على التخيير, وهذا جاء عن بعض الفقهاء أيضاً.

ونقول هما قولان للعلماء، الأرجح في هذا أن الحج واجب على الفور, فإذا استطاع الإنسان أن يؤديه أداه, وإذا أخره متعمداً من غير عذر فإنه آثم, وإذا مر عليه حول آخر يأثم بذلك, وإذا مر عليه حول ثالث فإنه يأثم بذلك وهكذا حتى يسقط بذلك الوجوب.

أما إذا مر عليه الحول والسبيل لم يتيسر له، والطريق لم يكن سهلاً أو تعذر لديه الوصول، كأن لم يجد مثلاً أوراقاً توصله، أو مثلاً لم يجد مالاً يوصله، أو غير ذلك، فيقال حينئذ بأن الإنسان يعذر لذلك, ويجب عليه عند قدرته.

حكم أداء العمرة

والعمرة لا تغني عن الحج وليست هي المقصودة في ذلك, فهي لها حكم خاص وقد اختلف العلماء في وجوبها على قولين, والأظهر في ذلك الوجوب, وقد جاء هذا عن عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وجابر وغيرهم وهو ظاهر صنيع البخاري رحمه الله في كتابه الصحيح أن العمرة واجبة ولكن وجوبها هو دون وجوب الحج وتأكيده.

معنى قوله: (فعجبنا له يسأله ويصدقه)

الملقي: [(قال: صدقت, قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه)].

الشيخ: هنا في قوله: (قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه), قال: لما أجاب النبي عليه الصلاة والسلام جبريل, جبريل قال له: صدقت, وهذه اللفظة من جبريل في قوله: صدقت محتملة لأمرين:

الأمر الأول: أن جبريل يعلم الجواب قبل ذلك فطابق الجواب العلم الذي لديه فصدقه فيه.

الأمر الثاني: أن جبريل يعلم صدق النبي عليه الصلاة والسلام، فصدقه فيه ولو لم يعلم الجواب قبل ذلك, وجبريل يعلم بالجواب قبل ذلك؛ لأنه هو الذي بلغه النبي عليه الصلاة والسلام, فهو الرسول إليه, إذاً: ما المراد من قول جبريل: صدقت لإعلام

الصحابة بهذه العبارة؟

أراد أن يعلمهم بأن النبي عليه الصلاة والسلام صادق في قوله, وأني أسأله وأنا أعلم بصدقه, فلم أسأله مغالطة ولا اختباراً ولا استطلاعاً وإنما إيماناً، فأي جواب يقوله فهو صادق به, ويحتمل أيضاً أنه أراد معنى التصديق العلم الذي وافق عندي. فقوله: صدقت أي: صدقت بما بلغني عنك أنك أخبرت به غيري، فأتيت أسألك عنه فجئت بما يصدق القول المنقول.

والأظهر والله أعلم أن جبريل في قوله للنبي عليه الصلاة والسلام: صدقت في هذا أنه أراد أن يبين للصحابة استسلامه للجواب، وثقته بصاحبه وهو مُحَمَّد ﷺ، وأن ما يقوله هو الحق, وذلك لينتبه الصحابة لكلام النبي عليه الصلاة والسلام وفيه أيضاً تعظيم للاتباع والانقياد لرسول الله ﷺ.

وقوله هنا: (فعجبنا له يسأله ويصدقه), وموضع العجب أنك كيف تسأل عن شيء لا تعلمه ثم تصدق من أجابك، فإما أن تكون تعلم قبل ذلك الجواب، فلماذا تسأل؟ فقولك: صدقت بشيء إما أن يكون لديك علم قبل هذا فوافق, فالسؤال ليس في محله إما أن يكون استعلاماً أو استطلاعاً أو من باب التأكد أو إعلام الغير أو غير ذلك, فلعل من مقصد جبريل في قوله: صدقت أن يشد انتباه الصحابة للسؤال الذي يليه, هل سيقول له: صدقت كما قال في الأولى أم لا؟

ولهذا كان بإمكانه أن يؤخر قوله: صدقت إلى آخر الإجابات, وإنما أراد أن يكون منه كلام يتخلل تلك الإجابة, وهذا أيضاً من السياسة في إفهام السامع، وكذلك شد انتباهه, وكذلك أيضاً فيه من أدب السؤال، أن السائل أو التلميذ إذا سأل عالماً عن مسألة من المسائل وهو يثق بعلمه أن يقول له: صدقت؛ إبداء لإحسان الظن به.

سؤال جبريل عليه السلام عن الإيمان

الملقي: [(قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه)].

وجه تقديم السؤال عن الإسلام

الشيخ: وقوله هنا قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قد على ما تقدم الإسلام هنا على الإيمان, مع أن الإيمان يتضمن معنى الإسلام والإسلام يتضمن معنى الإيمان, كذلك أيضاً فإن تقديم الإسلام على الإيمان من جهة السؤال؛ لأن الإسلام هو دعوة رسول الله ﷺ، فأراد أن يسأل عن المعنى الأشهر الذي يسأل عنه, فسأل عن المعنى العام ليدخل بعد ذلك في التفاصيل.

ويحتمل أيضاً أنه أراد أن يسأل عن العمل الظاهر, ثم يتبعه بالباطن, وهذا من القرائن على أن جبريل إنما سأل النبي عليه الصلاة والسلام ذلك بعد اشتهار أمر الإسلام وظهوره وجلائه، واكتمال أحكام الدين والملة, فأراد أن يسأل عن الأحكام الظاهرة؛ لتجاوز الناس مسائل الإيمان بالباطن وذلك لاشتهارها واستقرارها, فسأل بعد ذلك عن الإيمان, والإيمان هو

التصديق بالقلب, والنطق باللسان, والعمل بالأركان.

وبعض السلف يعبر عن ذلك ويقول: الإيمان قول وعمل, ويعبر عنه الإيمان قول وعمل ونية, ويعبر عنه بقول: الإيمان قول وعمل واعتقاد, فالإيمان شامل للباطن والظاهر, ولكن نجد أن كلام النبي عليه الصلاة والسلام في إجابته له أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله أن ظاهر الجواب يتعلق بالأمور الباطنة, وأن الإسلام يتعلق بالأمور الظاهرة, ولهذا نوع بين هذا وهذا ليحصل الجواب في ذلك تاماً.

عقيدة أهل السنة في الإيمان

وعقيدة أهل السنة في الإيمان أنه قول وعمل, والقلب له عمل وله قول, أما بالنسبة لقوله فإن الإنسان يحتاج بقلبه إلى تصديق، أن يصدق أن ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام حق, وأن الله عز وجل واحد، وهو المستحق للعبودية وحده, وأن رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، وغير ذلك من الأمور التي يجب أن تستقر في قلب الإنسان.

كذلك أيضاً للقلب عمل, وعمل القلب في هذا ما يتعلق بنية الإنسان وإخلاصه لله عز وجل, الإنسان إذا أراد أن يعمل شيئاً لابد من إخلاص، تخلص أن هذا العمل لله سبحانه وتعالى, لا تريد به فلاناً، لا ترائي لا تسمع وغير ذلك, إذاً لابد أن يكون في ذلك ترك, لهذا قد يوجد في قلب الإنسان التصديق لكن لا يوجد فيه العمل, كالذي يؤمن بالله سبحانه وتعالى وحقه جل وعلا في العبادة ثم يؤدي صلاة مرائياً لغير الله سبحانه وتعالى, فهذا ضل بفعله ذلك، وما تحقق فيه الإيمان على الوجه الذي أمر الله سبحانه وتعالى به.

كذلك أيضاً قول اللسان وتلفظه بالشهادتين وما دونها, الشهادتان هما أعلى ما يتلفظ به, ولا إله إلا الله هي أفضل الذكر وأفضل الدعاء أيضاً، كما جاء في الموطأ وغيره, ولهذا نقول: إن أفضل ذكر وأعظم ما ينطق به الإنسان من الإيمان هي الشهادة، لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله, ويليها بعد ذلك من الأعمال بحسب قربها من هذا المعنى, أو ما يتضمن شيئاً من معانيه من وجه من الوجوه كالتسبيح، وكذلك أيضاً الاستغفار والحمد الشكر وغير ذلك من ذكر الله سبحانه وتعالى, لكن أعلاه هو النطق بالشهادتين.

وبعض العلماء يسمي قول اللسان فعلاً, ويسميه عملاً وهو كذلك, ولهذا يقول الله عز وجل: ﴿ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ [الأنعام:112], فسماه قولاً ثم سماه فعلاً, وكذلك عمل الجوارح، أعظمها هي الصلاة, فلابد من عمل يأتي به الإنسان يثبت به الإيمان, كما ثمة حاجة إلى قول الإنسان بلسانه وأن يشهد بما في قلبه، كذلك أيضاً بحاجة إلى أن يعمل ليعبر عن الإيمان الذي في قلبه، وإلا لم يكن من أهل الإيمان.

العمل الذي يثبت به الإيمان

وما هو العمل الذي لابد من توفره في جوارح الإنسان حتى يثبت الإيمان؟ العمل نقول: الذي جاءت به الشريعة على نوعين:

النوع الأول: عمل اختصت به شرعة محمد ﷺ إما أصلاً أو وصفاً. اختصت به شريعة محمد ﷺ أصلاً يعني: شرع هذا العمل من جهة الأصل لا يعلم ولم يذكر فيما عداها من الشرائع. أو وصفاً جاء أصلها في الشريعة، ولكن وصفها انفردت به شريعة محمد ﷺ.

النوع الثاني: هو ما لم تنفرد به شريعة محمد ﷺ، فيكون جاء العمل وجاء في الأمم السابقة, وذلك ككثير من الأعمال بر الوالدين، الصدقة، الإحسان إلى الجار، إكرام الضيف، إماطة الأذى عن الطريق، سقيا الناس سقيا البهائم كسقيا الكلب كحال البغي في حديث بني إسرائيل, حديث أبي هريرة وغير ذلك. هذه أعمال دلت عليها الشرائع السابقة ودلت عليها الفطرة.

المراد بثبوت الإيمان في الإنسان وتحققه فيه هو النوع الأول، أن يأتي بعمل اختصت به شريعة محمد ﷺ, وأما النوع الثاني وهو ما يتعلق بما جاءت به الشرائع السابقة، فوافقت شريعة محمد ﷺ غيرها فهذا لا يثبت به الإيمان وإنما يزيد به الإيمان وينقص، ما لم يجحده كالذي يجحد شريعة بر الوالدين فيكفر بذلك, وأما من جهة العمل فإنها تزيد الإيمان وتنقصه.

أما من جهة وجود أصل الإيمان فإنه لابد أن يكون بعمل اختصت به شريعة محمد ﷺ؛ حتى يثبت بذلك إيمان وإسلام, وبهذا نعلم أن الذي يبر والديه ويحسن إلى الجار ويميط الأذى عن الطريق، هل يكفي في هذا للدلالة على إيمانه بالله؟ لا, لأن هذا الأمر تدل عليه الفطرة ولو لم تكن مؤمناً بالله.

الآن الملحد أو البوذي أو غيره ممن يعبد الكواكب أو يعبد النار، أو يعبدون البقر أو الفأر أو غير ذلك، ألا يحمدون بر الوالدين والإحسان إلى الجار وإماطة الأذى عن الطريق، والصدق في الحديث وكراهة الأفعال المحرمة، من القتل والسرقة أو غيرها، أليست مذمومة عند جميع البشر؟ مذمومة, وهذه الأفعال لو جاء بها الإنسان هل يثبت بها إيمانه؟

لا يثبت بها إيمانه, لكن لو فعلها معتقداً لها متديناً لله, وهو يشهد أن لا إله لا الله وأن محمداً رسول الله زاد بها إيمانه, وبمقدار تقصيره ينقص بذلك الإيمان. لكن لا يثبت إيمانه إلا بوجود النوع الأول وهو ما اختصت به شريعة محمد ﷺ.

وما هو ما اختصت به شريعة محمد ﷺ؟ هي ما قال به النبي عليه الصلاة والسلام أن تقيم الصلاة, وأن تؤتي الزكاة, وأن تصوم رمضان, الصيام هل صيام رمضان على صفته هذه خاص بشريعة محمد ﷺ أم بسائر الشرائع؟

الله عز وجل يقول: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة:183], الصيام أو صيام رمضان؟

الصيام, لا صيام رمضان, الصيام كأصل, لكن رمضان اختصت به شريعة مُحَمَّد ﷺ, لهذا نقول: العمل الذي يثبت به الإيمان هو ما اختصت به شريعة مُحَمَّد ﷺ؛ حتى يثبت أنك إنما تفعل هذا اتباعاً لمحمد لا استجابة للفطرة السليمة.

لهذا نجد اليهودي والنصراني وهم أصحاب شرائع مبدلة سابقة وخلطوا باطلاً وحقاً, ولا يميزون هذا من هذا, والملاحدة عباد الأحجار والأشجار والكواكب أيضاً لم نجد من هذه الأعمال التي اشتركت فيها سائر الشرائع؛ لماذا؟ لأنها توافق الفطرة.

لماذا جيء بالنوع الأول, وهو ما تمتاز به شريعة مُحَمَّد ﷺ؟ للبرهنة على الاتباع، ولو كان الأمر في ذلك لما تدل عليه الفطر السليمة فقط، لم يكن في ذلك مجال للاختبار والامتحان لاتباع النبي عليه الصلاة والسلام, يقول: أنا أستجيب للفطرة لست بحاجة إلى نبي يعلمني أن السرقة حرام, أو القتل حرام, لكن بحاجة إلى نبي يعلمني وجوب الصلاة والصيام والزكاة، وبحاجة إلى نبي يؤكد لي أن القتل والسرقة حرام. أما أصل التحريم فهو مستقر في النفوس, فتأتي الشرائع والأنبياء لتأكيد هذا لا لتأصيله.

ولهذا ما يأتي من الشرائع بالنهي عن السرقة والنهي عن القتل، هذا تأكيد لشيء مستقر في النفوس على الفطرة التي فطر الله عز وجل الناس عليها.

كذلك أيضاً توحيد الله جل وعلا, توحيد الله الإيمان بأن الله هو الخالق, تأتي الشرائع تأكيداً للفطرة, ولهذا الله عز وجل يقول: ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم:30], ويقول النبي عليه الصلاة والسلام كما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة: (ما من مولود إلا ويولد على الفطرة, فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)، الأصل أنه مؤمن بوجود خالق واحد متصرف به, لكن لا يعرف الصفات، لا يعرف الأسماء إلا عن طريق الله سبحانه وتعالى بوحيه جل في علاه, وما عدا ذلك يقع الإنسان في الأقيسة, يقيس هذا على هذا, والله عز وجل ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى:11] .

لهذا نقول: إن إيمان الإنسان لا يصح منه حتى يكون بقول وعمل واعتقاد, إذا فهم هذا الأصل فهم ضده وهو الكفر, فإذا علمنا أن الإنسان لا يكون مؤمناً حتى يعتقد ويقول ويعمل, وكذلك أيضاً أن هذه الثلاثة لابد من وجودها حتى يكون الإنسان مؤمناً, لكن لو زالت واحدة بكاملها فالإنسان لا يعمل خيراً أبداً, لكنه يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن مُحَمَّداً رسول الله, لا يصلي ولا يصوم ولا يزكي ولا يحج, ولا يفعل شيئاً من الطاعات التي اختصت به شرعة مُحَمَّد ﷺ.

وأما ما يندر منه من رحمة لابنه ورحمة لأمه وغير ذلك نقول: هذه فطرة وجدت في المخلوقات حتى في البهائم, هذه لا يثبت بها الإيمان, لكنها تزيد وتنقص إذا فعلها إخلاصاً لله سبحانه وتعالى.

أما ما يثبت به الإيمان ما امتازت به شريعة مُحَمَّد ﷺ, لهذا إذا انتفى واحد بتمامه من هذه الثلاثة لا يصح إيمان الإنسان, إذا فهمنا ذلك فهمنا ضد ذلك وهو ما يتعلق بالكفر، أن من بدر فيه كفر اعتقادي أو قولي أو فعلي عملي كفر بالله سبحانه وتعالى؛ لماذا؟ لأن الكفر إذا وجد في أي واحد من هذه الثلاثة ألغى الثلاثة جميعاً كحال صلاة المغرب ثلاث ركعات, الركعة

الأولى والثانية والثالثة هذه تسمى صلاة المغرب, القول والعمل والاعتقاد هذه تسمى إيمان.

إذا انتقض وضوء الإنسان في الركعة الثالثة هل تصح الركعة الأولى والثانية, أم تبطل صلاة المغرب؟ تبطل صلاة المغرب, كذلك أيضاً الذي يكفر بالعمل، ويقول أنا أنطق بالشهادتين ويؤمن بقلبه, هل يصح هذا منه؟ فعل مكفراً، سب الله سجد متعمداً لصنم من الأصنام, ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن مُحَمَّداً رسول الله يكفر أو لا يكفر؟

يكفر؛ لأنه جاء الناقض على واحد من هذه الثلاثة فانتقض الإيمان, ولكن لا نكفر إلا بشيء دل الدليل على كونه كفراً, وهل هذا ينفي زيادة الإيمان ونقصانه؟ نقول: لا، يزيد الإيمان ونقصانه, حينما نقول: إن هذه الثلاثة كحال صلاة المغرب، هل يعني أن هذه الثلاثة إذا زال واحد منها بالكلية زالت الثلاثة جميعاً؟ نعم, ولكن لو فعل الإنسان أو اعتقد أن هذه الثلاثة كحال صلاة المغرب وهي الإيمان قول وعمل واعتقاد, يعني: أن هذا الإيمان لا يزيد ولا ينقص؟

لا, لأننا نقول: أن الإنسان إذا فعل معصية لا يكفر بها؛ لكنها تنقص عمله وإيمانه, كحال الذي يزني أو يسرق, ولكنه مؤمن ويعمل ويؤدي الصلاة ويؤدي شيئاً من الصيام أو نحو ذلك، مقصر في هذا فهو مؤمن.

كذلك أيضاً ما يتعلق بالصلاة, صلاة المغرب ثلاث ركعات, تبطل بورود مبطل أو ناقض, مبطل للصلاة أو ناقض للوضوء فيه, لكن هل الصلاة تزيد وتنقص من جهة الأجر؟ نعم, تزيد وتنقص من جهة الأجر, إذا زاد خشوعاً زاد أجراً, وإذا ارتكب محظوراً نقص أجراً.

من المحظورات: الافتراش في الصلاة كافتراش السبع, كذلك أيضاً الإقعاء كإقعاء الكلب, النظر إلى السماء, منهيات, لكنها لا تبطل الصلاة؛ لأنه لا نبطل الصلاة إلا بشيء دل الدليل عليه, لو انتقض وضوءه بطلت الصلاة, نظر إلى السماء, النهي موجود لكن لا تبطل به الصلاة, كحال الذي يزني ويسرق لا يبطل الإيمان, لكن أجره ناقص, وإيمانه ناقص, كذلك أيضاً في مسألة الإيمان قول وعمل واعتقاد.

الدرس الثالث

من الأحاديث العظيمة التي تمثل بياناً واضحاً لأصول الدين وأركانه، حديث جبريل مع النبي ﷺ، وسؤاله عن الإسلام والإيمان والإحسان، فلا يتم إيمان العبد إلا بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره

- **الإيمان بالله**

وصلنا إلى قول جبريل عليه السلام: (فأخبرني عن الإيمان؟ قال ﷺ: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره).

- أدلة الإيمان بالله

قوله: (أن تؤمن بالله). الإيمان بالله سبحانه وتعالى هو أول أركان الإيمان, وتدل عليه الفطرة التي فطر الله عز وجل الناس عليها, ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم:30] , وجاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة: (ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) .

وكذلك فإن الله سبحانه وتعالى أشهد العباد على أنفسهم؛ وذلك أنه أخرج من ظهر آدم ذريتهم الذين يخرجون منه، فأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى, وهذا كافٍ في ثبوت الحجة بالإيمان بالخالق, ولهذا لا يعذر أحد بنفي وجحد وجود خالق, كما يدعيه الملاحدة؛ لوجود دليل الفطرة القائم في ذات الإنسان.

ولهذا نقول: هذا لا يحتاج إلى دليل السماع لوجود دليل الفطرة، وهو قوي وثابت في فطرة الإنسان، فمن جحد وجود الله سبحانه وتعالى فهو كافر ولو لم يبلغه دليل من الوحي, ويعاقبه الله سبحانه وتعالى على ذلك ولو لم تصله رسالة, لماذا؟ لأنه ناقض دليلاً قوياً أو أقوى دليل, وهو دليل الإشهاد ودليل الفطرة القائمة في ذات الإنسان, والخلق الأصل فيهم أنهم لا يكفرون بربوبية الله سبحانه وتعالى, وأن الله عز وجل أوجد الخلق، وهو ربهم المتكفل بهم الذي يقدر لهم أقدارهم وأحوالهم وآجالهم، وأنه جل وعلا يحييهم ويميتهم سبحانه وتعالى.

وأما صفات الله عز وجل وأسماؤه فإن الإنسان لا يصل إليها إلا بدليل السمع, ولهذا هل يعذب الله سبحانه وتعالى من لم يؤمن بالله ممن لم يبلغه الإسلام أصلاً وجحد وجود الخالق؟ نقول: يعذبه الله جل وعلا؛ لأن دليل الفطرة في بعض صوره أقوى من دليل الشرع ودليل السمع.

ونحن نجد أن أصحاب الملل إنما ينحرفون في وصف الخالق واسمه وحقيقته لا في أصل وجوده, ولهذا يتخبطون, فبعضهم يجعله كوكباً, وبعضهم يجعله حجراً, وبعضهم يجعله شجراً, وبعضهم يجعله ريحاً, وبعضهم يجعله غائباً لا يرى كالغول والجن, وبعضهم يجعله غائباً ويتخيله على صورة معينة, هم يؤمنون بالأصل, ولكن الوصف والحقيقة يضلون فيها؛ لماذا؟ لأنه لا يصل إليها

الإنسان إلا بدليل السمع؛ لأن الإنسان لا يثبت حق من ذلك إلا بالنص, والله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير, فهو يقيس على ما يرى فيضل ويزيغ.

المراد بالإيمان بالله

وفي قول النبي عليه الصلاة والسلام لجبريل: (الإيمان أن تؤمن بالله)، الإيمان بالله المقصود به أن يؤمن أن الله ظاهر في ربوبيته وإلوهيته وأسمائه وصفاته, وأن الله عز وجل لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤاً أحد, والله سبحانه وتعالى هو خالق الخليقة ورازقهم، وهو محييهم وهو مميتهم، وهو المدبر لهم الأرزاق والآجال.

القدر الواجب في الإيمان بالله

وفي الإيمان بالله سبحانه وتعالى ثمة قدر واجب عيني على الإنسان لا يصح إيمان إلا به, وثمة قدر زائد في ذلك لا يجب عليه أن يعلمه، وإذا علمه وجب عليه أن يؤمن به.

أما القدر الواجب فهو أن يعلم أن الله عز وجل واحد في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته, لا شريك له, ولا ند ولا نظير سبحانه وتعالى.

وأما تفاصيل ذلك من جهة صفات الله سبحانه وتعالى وأنواع العبادة التي تصرف لله جل وعلا فإذا عرف وجوب صرفها لله وحده، ولكنه جهل أنواع العبادة المصروفة, فهذا لا يضره من جهة ثبوت إيمانه.

وكذلك ما يتعلق بمعرفة أسماء الله, يجب عليه أن يعلم أن الله هو الرب المتفرد في تدبير خلقه والمستحق للعبادة وحده, وهو فرد أيضاً وواحد في أسمائه وصفاته, لكن تفصيل ذلك هل يجب على كل أحد أن يعلم أسماء الله كلها, أو الصفات كلها؟ لا, أنواع العبادة التي يصرفها لله, لا, ولكن يجب عليه أن يعلم ما يثبت به إيمانه, والإيمان بالله على ما تقدم في هذه الثلاثة لا كما يزعم الفلاسفة أو المتكلمون في هذا الباب.

الإيمان بالملائكة

قال: (أن تؤمن بالله وملائكته).

العلة في عطف الإيمان بالملائكة بعد الإيمان بالله

الإيمان بالملائكة إنما ذكرهم وعطفهم على الإيمان بالله سبحانه وتعالى؛ لأن الملائكة مقربون من الله جل وعلا, وكذلك فإن

الشرك فيهم يكثر في الجاهليين, وقد ضلوا في ذلك إذ جعلوهم بناتاً لله سبحانه وتعالى, تعالى الله عز وجل عن ذلك.

وحينما ضلوا في هذا بين النبي ﷺ حقيقتهم, وأنهم ملائكة لله مخلوقون خلقهم الله عز وجل لحكمة.

والله سبحانه وتعالى جعل الملائكة عباداً له لا يخرجون عن طوعه وأمره, ﴿ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم:6] , وكذلك أنه لا يتوجه إليهم بعبادة, ولا تعظيم لا يكون إلا للخالق سبحانه وتعالى, فهم مخلوقون, وكذلك لهم مشيئة.

أنواع الملائكة وأعمالهم

وهم على أنواع, منهم من سمى الله عز وجل في كتابه، إما سماهم باسمه كجبرائيل وميكائيل، ومنهم من ذكر الله عز وجل وصفه أو عمله, سواء في الكتاب أو في السنة كملك الجنة وملك النار وخازنها، وملك السحاب والرياح والجبال وغير ذلك.

وأما أن يعلم تفاصيل أولئك فلا يجب عليه إلا ما سماه الله سبحانه وتعالى في كتابه، وأوجب ما يجب الإيمان به من الملائكة، أما جبريل فيؤمن بأنه رسول الله عز وجل إلى أنبيائه، جعله الله عز وجل مختصاً بإبلاغ الرسالة إلى الأنبياء, وأما ما عدا ذلك من الملائكة فلا يجب عليه أن يتتبع أسماءهم في الوحي, لكن إذا بلغه الدليل وجب عليه أن يؤمن.

وكذلك فإن الله سبحانه وتعالى خلق الملائكة وجعل لهم أفعالاً, فجعل منهم من هو مختص بإحكام الكون, وإظهار إبداع الصنع, وإبداع الصنع لا بد فيه من إظهار الأسباب, فجعل الله عز وجل لها قانوناً تسير عليه.

ومنها ما يتعلق بكمال عدل الله سبحانه وتعالى كالملائكة الذين يحصون على العباد كتابة الرزق, وما يحصون عليهم أرزاقهم، وكذلك السيئات والحسنات الله عز وجل يكتب على عباده بملائكته أفعالهم لا ليعلم, والله عز وجل يعلم بلا ملائكة, والله قادر أن يقضي آجال العباد، فإذا قضى روح واحد منهم أخذه فوراً إلى الجنة أو إلى النار, ولو لم يمر على الحساب بعلمه سبحانه وتعالى بما عمل, ولكن الله عز وجل يوكل من ملائكته من يكتبون الحسنات والسيئات ليقيم الحجة على العباد, وهذا من كمال عدله؛ لأن الإنسان يخاصم ويريد بينة وشهود؛ ولهذا تفتح لهم صحف، هذا عملك, وشهد عليك الملائكة, فيأبى الإنسان إلا شاهداً من نفسه، فيضرب الله على فمه فتنطق جوارحه, ولهذا الله سبحانه وتعالى في إحصائه على عباده في الكتاب يريد أن يقيم الحجة على عباده، ولا يريد الله سبحانه وتعالى أن يعلم بذلك, فالله عز وجل له الكمال في علمه سبحانه وتعالى في عباده.

وكذلك الله جل وعلا ليس بحاجة إلى الميزان ليزن حسنات العباد وسيئاتهم ليعلم, فهو يعلم بلا ميزان, ولكن الله عز وجل يريد أن يقيم الحجة ليرى العباد أمام أعينهم الحسنات والسيئات, ويرى السبب الذي لأجله دخل الجنة أو لأجله دخل النار, وحينئذٍ تنقطع الأعذار, فجعل الله عز وجل من ملائكته كتبة على العباد يحصون عليهم أفعالهم، ويحصون عليهم أقوالهم,

ويحصون عليهم سرائرهم, وكل ذلك يحاسب عليه الإنسان.

اشتقاق اسم الملائكة

والملائكة مشتق هذا الاسم من الرسالة, من ألك ألوكة، أي: رسالة, فالكتاب عند العرب إذا كتبوا رسالة وكتبوا صحيفة أو غير ذلك يطلق على حاملها الملك, يعني: حامل هذه الرسالة, كأن الملائكة هم حملة الرسالة الذين أمر الله عز وجل بها سواء بلاغية أو عملية، فيحملون أوامر الله, فأمر الله عز وجل في الجبال وأمر الله في الرياح، وأمر الله عز وجل في الحياة والموت والرزق وغير ذلك, وأمر الله عز وجل أيضاً بتبليغ وحيه سبحانه وتعالى, هذا أيضاً ألوكة، أي: رسالة يبلغ الله سبحانه وتعالى بها إلى من شاء من خلقه بواسطة ملائكته.

الإيمان بالكتب

قال ﷺ: (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه).

ثلث بالكتب بعدما ذكر الملائكة؛ لأن الكتب إنما تصل إلى الأنبياء بواسطة الملائكة، وهو جبريل عليه السلام, وقد جعله الله عز وجل حاملاً للرسالة لنبينا عليه الصلاة والسلام ولغيره من الأنبياء.

المراد بالإيمان بالكتب

يؤمن الإنسان بما ذكر الله عز وجل في كتابه من كتبه للأنبياء سواء التوراة أو الإنجيل أو الزبور أو صحف إبراهيم وموسى، وخاتمتها وناسخها والمهيمن عليها هو القرآن الكريم الذي أنزله الله عز وجل على مُحَمَّد ﷺ, فيؤمن أنه ناسخ لسائر الشرائع, وأنه كتاب مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام, وأنه المحفوظ من التبديل والتغيير إلى قيام الساعة, وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه, وأن معانيه في الخطاب تتوجه إلى الناس كافة, لا يخص به فرد دون فرد، ليس لقريش ولا للعرب بل للعرب والعجم, ولقريش وغيرهم, بل للأنس والجن يتوجه الخطاب الوارد في كلام الله سبحانه وتعالى, فما زاد عن ذلك من معرفة التفاصيل لا يجب على الإنسان العلم به, لكن لو بلغه نص في ذلك وجب عليه أن يعلم بذلك.

حقيقة الكتب وأنها كلام الله

والإيمان بالكتب لازمه أن يعلم حقيقة هذه الكتب، وأن ما فيها هو كلام الله سبحانه وتعالى؛ تكلم الله عز وجل به على الحقيقة, ولا يقولون كما يقول المبتدعة بأنه حديث النفس, أو خلقه الله عز وجل في جبريل، فقذفه جبريل في مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم، أو خلقه الله في الهواء وهكذا مما يعللون به, بل يقال: هو كلام الله تكلم به الله عز وجل حقيقة, يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ [النساء:164] , ويقول الله جل وعلا: ﴿ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ﴾ [التوبة:6],

فنسب الكلام إليه مع أن المتكلم المبلغ عن الله جل وعلا هو رسول الله, لكنه تكلم بكلام الله, فيكون كلام الله، ولو سمعناه من غيره هو كلام الله, فيكون كلام الله ولو كان مكتوباً في الألواح, فهو كلام الله ولو كان بالمداد أو الورق، فالمداد والورق شيء، وكلام الله شيء, ولو كان محفوظاً في الصدور, ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت:49]، فهو كلام الله ولو كان محفوظاً في الصدور.

أما الأصوات فأصوات القراء, هذا صوته ثخين، وهذا رقيق، وهذا يتغنى، وهذا لا يتغنى, وهذا يحدر، وهذا يترسل, هذه أصوات, أما الكلام فهو كلام الله, فالكلام كلام الله سبحانه وتعالى.

وهذه المسألة لم تكن منظورة من جهة الطرح في كلام الصدر الأول؛ لعدم وجود المبتدعة القائلين بأن كلام الله مخلوق, ويقولون: هو كلام الله، ونسبته إلى الله نسبة تشريف كسماوات الله وأرض الله، فضلوا في هذا، فهو قول الله وصفة من صفاته سبحانه وتعالى.

وإذا قلنا بأن الصفة مخلوقة فيلزم من ذلك التعدي على الموصوف سبحانه وتعالى, تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً؛ ولهذا نقول: إن كلام الله سبحانه وتعالى تكلم الله عز وجل به على الحقيقة، وأن عدم ورود النصوص المرفوعة بنفيها لفظاً كلام الله ليس بمخلوق, لأنه لم يوجد مبتدع قال بأنه مخلوق حتى يوجد نص يقول: إنه ليس بمخلوق, فلما ظهر هذا القول جاء ذلك.

ومن أعلى ما جاء في هذا عن عبد الله بن مسعود , وأيضاً عن عبد الله بن عباس، رواه ابن جرير الطبري من حديث علي بن أبي طلحة عن عبد الله بن عباس أنه قال في قول الله عز وجل: ﴿ غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ [الزمر:28]، قال: غير مخلوق, ومن العلماء من ينكر هذا النص باعتبار أن هذه المسألة لم تكن منظورة, وإذا لم تكن هذه المسألة منظورة فآكد منها مسألة اللفظ؛ لفظ أن القرآن مخلوق, ولهذا يقول ابن جرير الطبريرحمه الله في كتابه السنة: القول بأن لفظ القرآن مخلوق أو غير مخلوق لم يكن في كلام صحابي مضى ولا تابعي قضى, وإنما هو في كلام من كلامه شفاء وغنى أبي عبد الله أحمد بن مُحَمَّد بن حنبل .

فلما ظهرت هذه البدعة وتفشت قام الإمام أحمد رحمه الله، وتصدى لها، وبين أن الخلل الذي وجد في أذهان بعض الناس من التسلسل واللوازم أنه إذا قلنا: إن القرآن كلام الله ليس بمخلوق؛ إذاً حينما يتكلم الناس كيف نفرق بين كلام الله وكلامهم, وكيف نفرق بين المكتوب في الألواح بأحبار وأوراق وكلام الله, والمحفوظ في الصدور كيف نميز هذا من هذا, نقول: إن الصوت صوت القارئ، والكلام كلام الباري، وهذا كلام الله إذا أحالنا إلى الحبر نقول: مخلوق, وإذا أحالنا إلى الورق نقول: مخلوق, ولكن حينما نشير إليه نقول: كلام الله سبحانه وتعالى.

ولهذا يسكت الإنسان عما زاد عن النص، ولا يوغل في التفاصيل، فيثبت ما جاء فيه, أما المبتدعة فقد أوغلوا في جزئيات, فيقولون: هو كلام الله, فإذا كان في الورق مكتوباً أين المخلوق وغير المخلوق؟ قال: هو ورق وحبر, فإذا كان ورقاً وحبراً فهذا مخلوق، وهذا مخلوق, فأين كلام الله منهما, فيدخلون في أمثال هذه الأشياء، والإيغال في هذا؛ يريدون بذلك أن ينقضوا

الأصل.

عقيدة أهل السنة في القرآن

وعقيدة أهل السنة والجماعة أنهم يقولون: إن القرآن كلام الله وهو غير مخلوق, لا يدخلون في التفاصيل, فإذا وجدت تفاصيل يلزم منها القول في كلام الله يقولون: هو كلام الله وهو ليس بمخلوق, سواء تكلم به الإنسان أو حفظ في الصدور أو كتب في الألواح, وهذا ظاهر من ظواهر الأدلة من كلام الله سبحانه وتعالى وكلام رسول الله ﷺ.

والإنسان حينما يتكلم قد يأتي بحديث عن فلان فتقول له: هذا كلام من؟ يقول: كلام فلان، مع أنه هو الذي تكلم فيه, الصوت صوته، ولكن هو ينقل حديثاً لفلان، فيسألونه: هذا الكلام كلام من؟ فيقول: هذا كلام فلان أو كلام فلان, إذاً أنت الصوت صوتك، ولكن الكلام تنقله عنه, ولهذا نقول: هو كلام الله ولو تكلمت به أنت, هو كلام الله ولو كتبته أنت, هو كلام الله ولو حفظته أنت في صدرك، هو كلام الله سبحانه وتعالى يبقى على هذا، ويجرى عليه من غير ولوج في تفاصيل لم يرد فيها الدليل.

الإيمان بالرسل

قال ﷺ: (الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله), هنا الإيمان برسل الله سبحانه وتعالى وأن لله عز وجل رسلاً.

ولله عز وجل رسل بعثهم الله سبحانه وتعالى إلى الناس, وهؤلاء الأنبياء منهم من ذكرهم الله سبحانه وتعالى في كتابه، ومنهم من لم يذكره الله عز وجل في كتابه, فيؤمن بما جاء بكتاب الله سبحانه وتعالى على سبيل التخصيص, وما ذكره الله جل وعلا في كتابه العظيم، ولا يثبت الإيمان في هذا إلا بالإيمان بمحمد ﷺ, وأنه عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء والمرسلين وأرسله الله عز وجل إلى الناس كافة, وخصه الله عز وجل بالقرآن الكريم.

أما ما عدا ذلك من تفاصيل الأنبياء هل هذا سابق لهذا، أو هذا يأتي بعد هذا، أو غير ذلك من المعاني المجملة التي لا يصل إليها الإنسان إلا بالتتبع, فنقول: يؤمن بالإجمال، ولا يجب عليه أن يتتبع التفاصيل في هذا.

إذاً إيمان الإنسان يصح إذا آمن بالأنبياء، لكن أن يكون مثلاً يحيى هو سابق ليعقوب أو ليوسف أو غير ذلك، الدخول في أمثال هذه التفاصيل لا علاقة لها بصحة إيمان الإنسان, لكن نقول: لو ثبت لديه نص في هذا وجب عليه أن يؤمن عند وقوفه عليه.

فإذا كذب النص الوارد في كلام الله فإنه مكذب لكلام الله عز وجل، وبهذا التكذيب يستحق في ذلك انتفاء الإيمان منه, وأما ما

ذكره الله سبحانه وتعالى في كتابه فيؤمن به.

والدخول في التفاصيل لا يجب على الإنسان عيناً أن يتعلمها، ولكن يبقى العلم بها وحفظها هي من الواجبات الكفائية التي إذا علمها الإنسان وصانها وحفظها للناس عند حاجة الناس إليها هذا من فروض الكفايات، ويسقط الله عز وجل بذلك التبعات على الناس.

الإيمان باليوم الآخر

قال ﷺ: (الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر).

وجه التسمية باليوم الآخر

قوله هنا: (واليوم الآخر) سماه الله سبحانه وتعالى يوماً وآخراً؛ لأنه يسبق أيام الدنيا فهو آخر الأيام, وسماه الله سبحانه وتعالى يوماً؛ لأن الشمس في ذلك اليوم لا تغرب فيه ولا تشرق, وإنما هو يوم يجعله الله سبحانه وتعالى بحساب يختلف عن حساب الدنيا, فاليوم عند الله عز وجل كألف سنة مما تعدون، يكون في حساب الناس حساب الخليقة, وبين هذا اليوم والأيام السابقة هي حياة البرزخ التي يكون الإنسان في قبره ويفتن ويسأل.

البعث والحساب للخلائق

والله جل وعلا جعل اليوم الآخر فيه المبعث والرجوع إلى الله, فيعيد الله سبحانه وتعالى تلك المخلوقات إليه، ثم يحاسبه الله سبحانه وتعالى, ومن يحاسبه الله سبحانه وتعالى منهم من يثيبه جل وعلا، ومنهم من لا يثيبه, ومنهم من يأمره الله عز وجل بأن يكون تراباً بعد الفصل فيه.

أما من يفصل الله عز وجل فيه ويثيبه أو يعاقبه وهم كحال الثقلين من الأنس والجن، هؤلاء الله عز وجل بعد مبعثه لهم يحاسبهم على ما تقدم من أفعالهم من أقوال وأعمال، حسنات وسيئات، ويقدر الله عز وجل لمن شاء جنة، ويقدر لمن شاء ناراً.

وأما الذين يحاسبهم الله، ولا يثيبهم ويعاقبهم في ذلك بجنة أو نار وهم كحال البهائم, فالبهائم يحاسبها الله عز وجل فيما بينها، كما جاء في حديث أبي هريرة في الصحيح: (لتؤدن الحقوق إلى أهلها, وليقتصن الله من الشاة القرناء للشاة الجماء يوم القيامة) , فيقتص الله الحقوق التي بينها، ثم بعد ذلك يقول الله عز وجل: كوني تراباً، وهذا لكمال عدل الله سبحانه وتعالى في هذا أن أنصفها فيما بينها في حقوقها، ولم يعاقبها الله عز وجل بذلك أو جعل نعيمها في الجنة لحكمة يقتضيها الله سبحانه وتعالى عنده لا يعلمها إلا هو.

درجات الإيمان باليوم الآخر

والإيمان باليوم الآخر ثمة ما هو واجب على الأعيان، وثمة من جزئيات الإيمان به ما لا يجب على الإنسان عيناً من تفاصيل يوم القيامة, فيجب على الإنسان عيناً أن يعلم أن الله عز وجل يقبض الناس, ويقدر لهم آجالهم, وأنهم يبعثون في هذا اليوم, ويسبقه حياة البرزخ، ثم المبعث يبعث الله عز وجل عباده إليه، ويحاسبهم على ما بدر منهم, فالمؤمنون إلى الجنة، والكفار والمشركون إلى النار, وأن الله سبحانه وتعالى قد يعاقب بعض عباده من أهل الإيمان بالنار.

وتفاصيل ذلك اليوم الآخر لا يجب على الإنسان عيناً أن يعلم مثلاً تفاصيل الميزان، وأن يعلم تفاصيل العرض .. تفاصيل السؤال .. تفاصيل الصراط أو غير ذلك, أو تفاصيل جهنم ما دام آمن بأصلها، تفاصيل جهنم ومراتبها ودرجاتها وأنواع العقوبة فيها، وكذلك ما يتعلق بالجنة ومراتبها ودرجاتها, وأيضاً مراتب الداخلين فيها، فهذا أيضاً نقول: لا يجب على الإنسان، ولا يقدح في أصل إيمانه جهله بذلك, ولكن إذا وقف على دليل في هذا يبين له وجب عليه أن يؤمن بذلك، وألا يكذب الدليل الوارد في هذا.

الإيمان بحياة البرزخ وعذاب القبر

هنا أشير إلى حياة البرزخ, فالإنسان يحيا في الدنيا ويحيا في حياة البرزخ ما بين الدنيا والآخرة، ثم يبعثه الله سبحانه وتعالى بعد ذلك.

وحياة البرزخ يحيا فيها الإنسان كحياة اليوم, وقد جاء في حديث عبد الله بن عمر قال: (ذكر النبي عليه الصلاة والسلام الفتان وقال: إنكم تحيون كحياتكم اليوم، ثم تفتنون), أي: يكون في ذلك افتتان الإنسان، يعني: اختباره وامتحانه بحسب إيمانه وثبوت ذلك عنده، وهو هول وفزع, ويكفي الإنسان في ذلك أن تعاد إليه روحه وهو في قبره، وكفى في هذا فزعاً وكفى في ذلك كرباً وشدة على الإنسان, فيعيد الله عز وجل للإنسان روحه، ثم يمتحن ويختبر ويرى في ذلك منزله من الجنة والنار.

والله سبحانه وتعالى ينزل على عبده في القبر في قبره الفتنة أو العذاب والنعيم, فما من أحد إلا ويفتن, وأما بالنسبة للعذاب والنعيم فإن هذا يختلف بحسب حال الإنسان, والعذاب والنعيم يكون على الجسد، ويكون كذلك على الروح, فيكون على الجسد والروح، ويكون كذلك على الروح وحدها, ولا يكون على الجسد بلا روح.

والله سبحانه وتعالى يري عباده منازلهم من النار لو عصوه، ويريهم منازلهم من الجنة إن أطاعوه, وكذلك العكس يري العصاة منازلهم والكفار منازلهم من الجنة لو أطاعوه، ومنازلهم من النار إن عصوه, وذلك لتمام النعيم لأهل الإيمان وتمام العذاب لأهل النار.

ولكن لا يعذب الله عز وجل الناس من المشركين بالنار في القبور, وإنما يجعلها الله عز وجل في الآخرة, وهذا ظاهر في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ [غافر:46] , يعني: يأتي عرضاً عليها، أما بالنسبة للعذاب ودخولها فإن الله عز وجل لا يدخلهم إياها إلا بعد الحساب وبعد الميزان، فإن الله عز وجل يري الناس منازلهم في القبور، ثم يؤتيهم إياها بعد ذلك.

وفي قولنا على ما تقدم أن الله عز وجل إنما وكل ملائكة تحصي على عباده الحسنات والسيئات ليعلموا هم، لا يعلم هو سبحانه وتعالى، فالله يعلم بلا حساب ولا ميزان ولا كتبة, ولكن يحسب عليهم ليعلموا هم, ولهذا الله سبحانه وتعالى في القبر يري عبده المشرك منزلته من النار قبل أن يمر بالكتبة والإقرار والميزان، فيريه النتيجة التي سيصل إليها, وكذلك المؤمن في حال طاعته يريه منزلته من الجنة قبل أن يوزن وقبل أن يحاسب، وقبل أن يصل إلى الجنة؛ لأن الله عز وجل عالم وحده سبحانه وتعالى بلا كتابة ولا حساب ولا رقيب ولا عتيد، وإنما هو علم ذاتي لله سبحانه وتعالى.

فالناس يفتنون في قبورهم، ولهذا استعاذ النبي عليه الصلاة والسلام من فتنة القبر ومن عذاب القبر, وما من أحد إلا ويفتن, وبعد الفتنة إما ينعم وإما يعذب, والعذاب في ذلك والنعيم متحقق للإنسان, وكذلك الفتنة هي متحققة للجميع للمنعم وكذلك للمعذب.

الإيمان بالقدر خيره وشره

قال ﷺ: (وأن تؤمن وبالقدر خيره وشره).

منزلة الإيمان بالقدر

أركان الإيمان في هذا الحديث ستة, والإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره ركن من أركان الإيمان، وهو سبب إيراد الحديث أنه على ما تقدم أنهم لما جاءوا إلى عبد الله بن عمر يحيى بن يعمر وحميد بن عبد الرحمن جاءوا إليه، فذكروا له معبداً الجهني (وأنه ظهر أقوام قبلهم يقرءون القرآن، ويتقفرون العلم، ويقولون: لا قدر, وأن الأمر أنف), فكان هذا هو السبب لإيراد هذا الحديث كله, وهذه المسألة وهذه الجزئية؛ وذلك لبيان منزلة هذا الحكم ومكانته في الدين, فذكر أركان الإيمان، وذكر منها الإيمان بالقدر خيره وشره.

المراد بالإيمان بالقدر

والإيمان بالقدر هو التصديق أن الله سبحانه وتعالى قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم سبحانه وتعالى, وأما معرفة الزمن والمدة بخمسين ألف عام والكتابة وغير ذلك هذه أيضاً من فروض الكفاية، ولا يجب على الإنسان بشكل عيني؛ ولهذا لا يقال بعدم إيمان الإنسان إذا آمن بالقضاء والقدر، لكنه لا يعلم المدة التي تمت فيها الكتابة قبل خلق السماوات والأرض, ولهذا نقول:

إنه يجب علينا أن نؤمن أن الله قدر على عباده خيراً وشراً.

تقدير الشر من الله لعباده

وإنما ذكر هنا الإيمان بالقدر خيره وشره فذكر الخير والشر, والله سبحانه وتعالى لا يقدر على عباده شراً محضاً, وإن قدر عليهم شراً فإنه يئول إلى خير، إلا إذا أساء الإنسان ظنه بربه فجعل الله عاقبة أمره إلى سوء, حتى لو كان أيضاً ما يقدره الله عز وجل للإنسان في ذلك خيراً.

وسوء الظن هو الذي يقلب العواقب, فمن أصيب بسوء فأساء ظنه بالله أو رزق خيراً فأساء ظنه بالله, فإن الله عز وجل يجعل عاقبة ذلك إلى خسار, ولهذا ذكر الإيمان بالقدر قال: الإيمان بالقدر خيره وشره.

وهنا ذكر الخير والشر، وجعلهما نوعين للقدر، وما نسب القدر هنا إلى الخالق سبحانه وتعالى للعلم به, وهذا ظاهر فقال: وبالقدر خيره وشره.

نسبة الشر لله جل وعلا

ومن الأدب مع الخالق سبحانه وتعالى ألا ينسب الشر لله جل وعلا بل ينسب إليه الخير, لماذا؟ لأن الله ما أوجد العباد ليصيبهم بالشر, ولكن ليبتليهم الله عز وجل لينظر ماذا يفعلون, ولهذا نقول: وجب الإيمان بالقدر خيره وشره.

ويجوز ذكر الشر ونسبته لله سبحانه وتعالى بحالين:

الحالة الأولى: أن ينسب الشر بالبناء للمجهول, كما تأدب الجن مع الله سبحانه وتعالى فقالوا: ﴿ وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ ﴾ [الجن:10] , قالوا: أريد, ﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن:10] , فذكروا إرادة الخير والرشد ذكروها للرب سبحانه وتعالى, وأما إرادة الشر فذكروها بالبناء للمجهول فقالوا: (أريد)؛ وذلك لأن الله سبحانه وتعالى لا يريد بعباده شراً محضاً، ولكن يجعل ذلك لحكمة يبتلي بها العباد.

وكيف تنقل الموازين الخير والشر من جهة العاقبة فيكون الشر في ذاته عاقبته خيراً في الإنسان, والخير في ذاته ينقلب إلى شر؟ ينقلب في ذلك لأسباب, والأصل أن المؤمن لا يقدر الله عز وجل له إلا خيراً ولو أصابه شر, والنبي عليه الصلاة والسلام كما في الصحيح من حديث صهيب يقول: (عجباً لأمر المؤمن؛ أن أمره كله له خير, إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له, وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له), فكان هذا من الله سبحانه وتعالى هو بسبب الشكر، فيدوم الخير في ابتدائه وعاقبته, وأما الشر في ابتدائه وفي نهايته فيكون شراً على الإنسان إذا لم يصبر، وأما إذا صبر فإن الله عز وجل يجعل عاقبته إلى خير.

وأما إذا كان الإنسان أصابه الله عز وجل خيراً فأساء ظنه بالله أو جعل ذلك إلى نفسه فقال: (أوتيته على علم عندي) فأرجعه إلى نفسه، وما أرجعه لله، فيقلب الله عز وجل المال الذي أعطاه أو الولد الذي آتاه يقلبه عليه شراً، فيجعله حسرة عليه فيعقه الابن ويفسد عليه نفسه وماله وكذلك روحه وما رزقه الله عز وجل من مال.

نفي القدر

والإيمان بالقدر على ما تقدم هو ركن من أركان الإيمان لا يصح الإيمان إلا بذلك, وتقدم أيضاً ما جاء في حديث عبد الله بن عمر عليه رضوان الله في قوله: (والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما تقبل الله منه حتى يؤمن بالقدر), وذلك لمنزلته ومكانته؛ لأن من نفى القدر يلزم منه أن ينفي العلم, وكان القائلون بذلك في ابتداء القول بنفي القدر لما ألزموا بالعلم: إذا كنت تنفي أن الله يقدر الأشياء في المستقبل هل تنفي العلم في المستقبل أن الله لا يعلم؟ دعنا من التقدير هل تنفي العلم؟

إذا قال: لا أنفي العلم إذاً كيف يعلم من لم يقدر, ويقول الشافعي رحمه الله في القدرية: نخاصمهم بالعلم, فإذا نفوا العلم كفروا, فإذا آمن بالعلم فإنه يخسر، ولا بد أن يثبت القدر, فإذا نفى العلم كفر بالله سبحانه وتعالى؛ لأن الله عز وجل عنده لا يعلم ما يأتي.

ولهذا ظهر في أول أمرهم من ينفي علم الله على سبيل الاطراد؛ ليخرج من قضية نفي القدر, واستدرك من جاء بعدهم هذه المسألة، فأثبت العلم ونفى القدر، وهذا من تناقضات القدرية هروباً من الكفر بنفي العلم، ويرون بنفي القدر في ذلك تنزيهاً، تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً.

بل يقال: إن الله قدر مقادير الخلائق وهو الله سبحانه وتعالى كذلك يعلم أفعالهم وأحوالهم قبل أن تحدث, وهو الذي كتبها عليهم قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف عام، فيعلم أفعالهم وأحوالهم وآجالهم وأرزاقهم وكذلك ما يحدث منهم من ذرياتهم وأوطانهم ودورهم ومساكنهم وغير ذلك مما يقدره الله سبحانه وتعالى عليهم.

تصديق جبريل لإخبار النبي بماهية الإيمان

ثم قال: (صدقت).

هنا ذكر بعد الإجابة على أركان الإيمان قال: صدقت, والعبارة التي قالها في الإسلام لما أجاب الإسلام قال: صدقت, (قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه), وهذا ظاهر, والعلة في ذلك واحدة, وإنما تكررت في ذلك للفت الانتباه، ولما يأتي أيضاً من سؤال بعد ذلك عن الإحسان.

الدرس الرابع

الدين إذا أطلق فيراد به جميع شرائع الإسلام: الإسلام, الإيمان, الإحسان, حتى أشراط الساعة هي أيضاً من دين الله سبحانه وتعالى، وأعلى مراتبه الإحسان بأن يأتي الإنسان بأعظم الأعمال وأحبها عند الله على الوجه الذي يريده الله، وأن يستحضر في كل عمل وفعل أن الله يراه، ومنه ما هو واجب ومنه ما هو مستحب ومن الدين الإيمان بأشراط الساعة، فأشراط الساعة التي تقوم بها يتفاوت الناس في ذلك, أما زمن العلم بها تحديداً فيستوي الناس في الجهل في ذلك.

مرتبة الإحسان

وصلنا إلى قول جبريل عليه السلام: (فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

ما يتحقق به الإحسان

سأل هنا عن الإحسان بعدما سأل عن الإسلام والإيمان, والإحسان لا يخرج عن الإسلام، ولا يخرج عن الإيمان؛ لأنه من جهة الحقيقة الإحسان كما في تعريفه أن تعبد الله, بماذا تعبده؟ تعبده بالإسلام أو الإيمان على ما تقدم, ولكن أراد أن يبين أن ثمة مراتب للإسلام والإيمان من جهة العمل في كل أمر, فمثلاً الإيمان بالله ثمة أمر لا يثبت الإيمان إلا به, وثمة أشياء هي من الإحسان أن تتعرف على الله، فتحصي أسماء الله وتتبعها من كتابه, وتعرف ما تقف عليه من آثارها على العبد ومعانيها وغير ذلك مما جاء في كلام الله أو كلام رسول الله ﷺ.

وكذلك أن تتعرف على حق الله عز وجل في معرفة صفاته الواردة في كتابه وفي سنته عليه الصلاة والسلام, وأن تتعرف بحق الله في ألوهيته وما يصرف له من عبادة, وأي العبادات أحب إليه من غيره، وهذا له أثر أيضاً على الإنسان.

أعلى مراتب الإحسان

هنا سأله عن الإحسان بعدما سأله عن الإسلام والإيمان ليعلم الصحابة مراتب العمل وأفضلها في ذلك, فقال: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه)، وأعلى مراتب الإحسان في هذا أن يأتي الإنسان بأعظم الأعمال وأحبها عند الله على الوجه الذي يريده الله, فيصلي لله على الوجه الذي يريده الله سبحانه وتعالى بوجه الكمال, وذلك أن الصلاة هي أعظم العبادات العملية, فالإحسان في الصلاة أعظم من الإحسان في الزكاة, والإحسان في الزكاة أعظم من الإحسان في الصيام, والإحسان في الصيام أعظم من الإحسان في الحج وهكذا.

فإذا أحسن الإنسان في عبادة هي أعظم عند الله من غيرها فهو أعظم عند الله عز وجل أجراً, ولهذا تأخر السؤال عن

الإحسان بعد تقرير معاني الإسلام وتقرير معاني الإيمان, والإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره واليوم الآخر هذه كلها فيها إحسان، ولا يثبت الإيمان والإسلام إلا به, وفيها إحسان زائد يتلقى فيه الإنسان, ويعلم حقائق اليوم الآخر, سواء بالوعظ والترغيب والترهيب، فيعرف الميزان، ويعرف الصراط فيما يقوي إيمانه, ويعرف صفات أهل النار والذنوب التي توجب النار، وحال المنافقين، وهم في الدرك الأسفل من النار لماذا دخلوها؟ أهل الجنة، مراتب أهل الجنة ودرجاتهم, والشفاعة ما يتعلق في ذلك, وكلما ازداد الإنسان في ذلك ازداد في ذلك إحساناً.

وهنا اختصر هذا المعنى ليدخل فيه كل هذه الدائرة؛ فلما سأله عن الإحسان قال: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه), تعبده بماذا؟ تعبده بالإيمان به, بأركان الإيمان، تعبده أيضاً بأركان الإسلام.

قال: (أن تعبد الله كأنك تراه, فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، وهذا نوع من تقريب هذا المعنى، جانب من جوانب الإحسان, وذلك أن الإنسان مفطور على التأثر بالمشاهدة, فيتأثر بالمشاهدة ما لا يتأثر بالغير, وهذا أمر فطري, فالإنسان إذا كان أجيراً عند أحد، ثم جاء سيده أو مديره فإنه يتقن العمل, وإذا غاب عنه ضعف حساً عن النشاط في ذلك، والإنسان إذا كان أجيراً كأن يكون مثلاً راعياً في غنم عند سيده أو فلاحاً في بستانه، أو يكون تاجراً في متجره يعمل عنده، فإذا حضر صاحب العمل ينشط الإنسان فطرة, وإذا غاب فإنه يفتر؛ لماذا؟ للأصل الفطري في ذات الإنسان في مسألة الغيب والشهادة, ولما تأثر في هذا وغلب على طبع الإنسان في التعامل مع الناس التفريق بين الغيب والشهادة، يغيب عن الإنسان شعر أو لم يشعر، أن الله عز وجل يختلف سبحانه وتعالى عن ذلك, فليس بحاجة أن تراه ليعلمك, والله سبحانه وتعالى لا يعلم حتى يتجلى لك, فهو يراك وإن لم تكن تراه, قال: (أن تعبد الله كأنك تراه), يعني: كأنه أمامك، كيف تكون الصلاة, وكيف يكون الصيام, وكيف تكون الزكاة, وكيف يكون الحج من جهة الإتقان والخشوع والخضوع لله, كيف يكون إذا كنت تؤديها على مقدار معين لو أن الله أمامك، فاعبد الله وأنت لا تراه, واعلم أنه يراك في الحالين, رأيته أنت أو لم تره.

فذكر معنى الإحسان هنا قال: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه, فإن لم تكن تراه فإنه يراك) , يعني: أن تأثرك في الغيب والشهادة لا أثر له في تعلق علم الله عز وجل بك, فالله يعلم حالك ولو لم تراه, وأما تعلقك بالرؤية والغيب من جهة العلم وعدمه فلا أثر له في الجانب الآخر وهو علم الله سبحانه وتعالى فيها. وهذا أعلى مراتب الإحسان.

الإحسان الواجب والمستحب في جانب العبادات

وما من عبادة من العبادات إلا وفيها إحسان واجب وإحسان مستحب, والإحسان الواجب هو أن يفعل الإنسان المأمور ويجتنب المنهي، ففي الصلاة مثلاً يأتي الإنسان بالأركان والواجبات, ويجتنب المنهيات في الصلاة كافتراش السبع ونقرة الغراب وإقعاء الكلب وغير ذلك، هذه منهيات وجاء بالواجبات، هذا الإحسان الواجب.

والإحسان المستحب ما هو؟ الزيادة في الخشوع, الإطالة في الصلاة, الزيادة في الطمأنينة في الصلاة, وأن يطيل القيام والقراءة, ويتبع سنة النبي عليه الصلاة والسلام, وما هو الدعاء الذي كان يقوله؟ ولو تركت في الصلاة مثلاً في دعاء النبي

عليه الصلاة والسلام: (يا مصرف القلوب صرف قلبي على دينك) , لو تركه هل ترك واجباً؟ ما ترك واجباً, لكن لو فعله فعل إحساناً مستحباً.

وكذلك في الحج ثمة إحسان واجب وإحسان مستحب, فالإحسان الواجب أن يأتي بالواجبات والأركان، ويجتنب المنهيات والآثام, وكذلك بالنسبة للمستحب في ذلك أن يأتي بالسنن؛ كالاغتسال في الميقات, والتهليل والتكبير, والتلبية وتعهدها, والتكبير عند كل شرف, والتسبيح عند كل هبوط, والاغتسال عند دخول الحرم, وتقبيل الحجر, والرمل, والاضطباع, وصلاة الركعتين على قول الجمهور, ورفع اليدين على الصفا, فهذه مستحبات لا تؤثر على أصل العمل، لكنه إحسان.

لكن ما هو الذي يعرف الإنسان مقامه في جانب الإيمان؟ يعرف مقامه في جانب الإيمان, وفي جانب المستحبات، كلما ازداد فيها ازداد إيماناً؛ لأن قوة العلم بأن الله يراك تزداد لدى الإنسان, فإذا غابت أزلت المستحب حتى أكلت من الواجب, ولهذا ترى بعض الناس يصلي وينظر للسماء, أو يقعي أو يفترش أو ينقر نقرة الغراب أو غير ذلك من المنهيات فهذا تجاوز المستحبات، ووقع في المنهيات.

إذاً: هل هو من المحسنين؟ ليس من المحسنين.

ولهذا الأصل في المحسن أنه يفعل المستحب, أما من ترك الواجب فلا يسمى محسناً, فالإحسان هو الزيادة في قدر المستحب في كل عبادة من العبادات, ولهذا الأولياء والأصفياء يبحثون عن المفقود من المستحب ليزيدوا ولا ينظروا إلى المفقود من الواجب؛ لأنه لا مفقود في الواجبات عندهم, ولأن المفقود من الواجب تاركه لا يسمى محسناً أصلاً, وإنما يسمى مقصراً عاصياً، فإذا جاء بمقدار الكمال فيما عدا ذلك فإنه يسمى إحساناً.

منزلة استحضار رؤية الله للعبد

قال ﷺ: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، وهذا أيضاً إذا استحضره الإنسان في كل عمل وفعل أن الله يراه, ويستحضر كأن الله أمامه حقيقة هو يراه, تتغير عبادته في ذلك, وهذا فيه إشارة إلى قوة اليقين وضعفه في قلوب الناس, فمن الناس من يبلغ مرتبة في اليقين عبادته في الخفاء كعبادته في العلن خشوعاً وتضرعاً وبكاء وحضور قلب وإطالة صلاة, ومن الناس في العلن من يطيل الصلاة ويخشع إذا رأى الناس, والمقدار بين السر والعلانية هذا هو مقدار الرياء, لا إحساناً للخالق في الغالب، وإنما إحسان للمخلوق, والإحسان للمخلوق الذي يحسن في السر والعلانية هو المحسن حقيقة, فتستوي صلاته، ويستوي صيامه، وتستوي عبادته على حد سواء.

الإخبار عن الساعة وأماراتها

قال جبريل عليه السلام: (فأخبرني عن الساعة؟ قال صلى الله عليه والسلام: ما المسئول عنها بأعلم من السائل).

الحكمة من السؤال عن وقت الساعة مع أنها غيب

هنا بعدما ذكر الإسلام, الإيمان, الإحسان ذكر أمر الساعة، وهي العاقبة والأجل مع أنه ذكرها ركناً من أركان الإيمان، قال: اليوم الآخر، وهي الساعة, لكنه سأل عن تفاصيلها, وتفاصيلها في ذلك أنه سأل عن زمانها: متى هي؟ وجبريل يعلم أنها في علم الله, فجبريل في نفسه لا يعلم متى الساعة، وإنما هي بأمر الله سبحانه وتعالى يقيمها متى شاء, فسأل جبريل رسول الله ﷺ وهو يعلم الجواب, ورسول الله ﷺ يعلم الجواب أن العلم إلى الله وحده سبحانه وتعالى، فأرادوا أن يعلموا الناس من الصحابة بذلك الجواب، وكذلك من جاء بعده.

العلم بوقت الساعة

والساعة سميت بهذا لكونها وقتاً واحداً أو لحظة تقوم على الناس جميعاً لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى, قال لما سأل جبريل رسول الله ﷺ عن الساعة قال: (ما المسئول عنها بأعلم من السائل) .

وجبريل لا يعلم, ورسول الله ﷺ لا يعلم, وإنما ذكر النبي عليه الصلاة والسلام أنه ليس بأعلم من جبريل؛ لأن جبريل يعلم ذلك من الله قبل رسول الله ﷺ؛ لأنه هو المبلغ, فالوحي وصل إلى مُحَمَّد ﷺ بواسطة جبريل، إذاً سمعه جبريل قبل مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم, فكل شيء من الوحي ومن الدين إنما أخذه النبي عليه الصلاة والسلام بواسطة جبريل إلا شريعة واحدة، وهي شريعة الصلاة أخذها مُحَمَّد ﷺ عن ربه سبحانه وتعالى بلا واسطة؛ ولهذا قال: (ما المسئول عنها بأعلم من السائل) , يعني: عن أمر الساعة, يعني: أنت تعلم قولي، وإن كنت جاهلاً فإني لن أكون عالماً في ذلك, وإني لو كنت عالماً فلست بأعلم منك في أمرها.

وأيضاً في هذا أراد البيان والعلم للصحابة عليهم رضوان الله تعالى أن من هو مقرب من الله عز وجل مكاناً وهو جبريل عليه السلام لا يعلم ذلك، فكيف بأهل الأرض من البشر, فلا شك أيضاً أنهم لا يعلمون من باب أولى.

الحكمة من قوله: (ما المسؤول عنها بأعلم من السائل)

وهنا لما ذكر الساعة وبين له النبي عليه الصلاة والسلام أنه لا يعلمها وليس بأعلم منه هذا الجواب من النبي عليه الصلاة والسلام: (ما المسئول عنها بأعلم من السائل), والحكمة منه مع أن الصحابة لا يعلمون أن هذا جبريل، أراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يبين استواء الناس بمقدار العلم بالساعة وهو الجهل, ولكن يتفاوتون في ذلك بمعرفة أماراتها وشروطها

وقيامها, فأشراط الساعة التي تقوم بها يتفاوت الناس في ذلك, أما زمن العلم بها تحديداً فيستوي الناس في الجهل في ذلك, فأراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يبين هذا الأمر.

ويحتمل أيضاً أن النبي عليه الصلاة والسلام أراد أن يلفت انتباه الصحابة إلى أن هذا السائل لديه علم, ويحتمل أيضاً أن النبي عليه الصلاة والسلام أراد أن يبين أن هذا الذي يسأل وهو يظهر عدم العلم فيما يسأل أني وإياه نشترك في عدم العلم بالساعة, فغيركم من باب أولى.

أمارات الساعة وأقسامها

وأمارات الساعة هي العلامات والأشراط والشرائط, وأمارات الساعة التي تسبقها على نوعين: أشراط كبرى وأشراط صغرى, وعلامات الساعة وأماراتها: أمارات وعلامات صغرى وعلامات وأمارات كبرى, والصغرى والكبرى منصوصة في كلام الله وكلام رسول الله ﷺ.

والصغرى تسبق الكبرى، ومن الصغرى ما يتخلل الكبرى, يعني: يأتي معها مع كونها صغرى, ولكن الأصل في الصغرى أنها سابقة للكبرى, فإذا جاءت الكبرى تبعت، وزمن الصغرى أطول من زمن الكبرى, وذلك أن أول الصغرى ظهر في الصدر الأول, ثم بقيت هذه الصغرى تخرج زمناً بعد زمن, ثم إذا جاءت الكبرى توالت وتتابعت، فهي أقصر زمناً من الصغرى التي ظهر أولها في الصدر الأول بمبعث النبي ﷺ، ولهذا يقول النبي عليه الصلاة والسلام: (بعثت أنا والساعة كهاتين), وهذا أيضاً من أماراتها انشقاق القمر, ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر:1].

وهل الصغرى المراد بذلك هي صغرى من جهة حدوثها أم صغرى من جهة سبقها للكبرى؟

نقول: ليس من جهة حدوثها فقد تكون عظيمة كانشقاق القمر, ومبعث النبي عليه الصلاة والسلام حدث عظيم, ولكن إنما تسمى صغرى وكبرى لأن الكبرى تتتابع، وتسمى صغرى بمجموعها لا بأفرادها, وتسمى كبرى بمجموعها لا بأفرادها؛ لأنه يوجد من أشراط الساعة الصغرى ما يأتي في زمن الكبرى, ومن أشراط الساعة الكبرى ما يتخلل الصغرى وهو نادر قليل, فيكون كبيراً في حدوثه وهو في زمن الصغرى من جهة زمانه.

معاني أن تلد الأمة ربتها

قال: (أن تلد الأمة ربتها) ذكر هنا أول هذه الأشراط, والأمة هي المستعبدة من الجواري, ﴿ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ ﴾ [البقرة:221], فالأمة المستعبدة من الرقيق، وأيضاً يقابلها من الذكور العبد, ﴿ وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ ﴾ [البقرة:221] .

فنقول حينئذٍ: إن النبي عليه الصلاة والسلام ذكر الأمة (أن تلد الأمة ربها, وفي رواية: ربتها), إشارة إلى سرعة تقلب الناس من ضعف إلى قوة, فيكون الإنسان ابن أمة، ثم يكون سيداً في قومه, وتكون المرأة مستضعفة، وتكون بعد ذلك سيدة, ويلزم من ذلك أن الرجل يكون سيداً، ثم يصبح وضيعاً لسرعة الأحداث وتقلبها, هذا أحد المعاني.

ومن العلماء من قال في هذا معانٍ أخرى، منها: وفرة الجهاد وكثرته في سبيل الله حتى يكثر في ذلك التسري, وأن تلد الأمة ربتها فيكثر الزواج أو نكاح الموالي والإماء, فتنجب سيداً ينسب لأبيه ويسود عليها.

ومن هذه المعاني: إنه ينتشر العقوق في آخر الزمان فتلد ربها أو ربتها، أي: يسود على أمه ويعاملها كمعاملة الرقيق. وهذا من المعاني, ويحتمل أن يراد بها البعض, ويحتمل أن يراد بها الجميع, فالنبي عليه الصلاة والسلام أوتي جوامع الكلم.

التطاول في البنيان ومعانيه

ثم قال: (وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان)، وهذا أيضاً من أشراط الساعة, وهو متضمن للمعنى الأول, فالمعنى الأول يتضمن تغير الحال الاجتماعي, وهذا يتضمن تغير الحال الاقتصادي, فهو بدوي أعرابي ثم تجده يناطح الناس بالبنيان, فتحول من راعي غنم إلى حضارة, بل إلى منتهى الحضارة, وهل يلزم من ذلك العكس أن الإنسان يتحول من منتهى الحضارة إلى البداوة؟ نعم, يلزم من هذا, لأن المقصود من ذلك هو سرعة وتقلب الحال.

وفيه إشارة أيضاً إلى انتشار المال في أيدي الناس حتى يفيض ويتناوله ذلك البدوي، يعني: أنه فاض عن الحاضرة حتى وصل إلى ما هو أقصى من ذلك, وهذا شاهده في العصر ظاهر, تجد أحدهم ينشأ فقيراً ثم يغتني, أو كان على حال سيئة ثم يصبح من أسياد الناس في المال, وثراؤه مثله في الأزمنة السابقة لا يأتي إلا بعد أن يرث المال عن أجيال, فيأتي واحد وتكون له القناطير المقنطرة من الذهب والفضة.

ولهذا هذا من أشراط الساعة التي ظهرت في السابق, شيوع المال في الناس، وهذا أمر مشاهد ملموس.

والناس من المؤسف يتعاملون في أمور المال وتمييز الفقراء من الأغنياء من وجه نسبي بحسب زمانهم، لا يقارنونه بأصل الرزق والكفاية, ولهذا تجدون الملوك والأسياد في القرون الماضية عاشوا في مساكن لا يسكنها الفقراء اليوم, ولو قلت لفقير: اسكن هذا ما سكن, بل لو أتيت إلى أحد الفقراء وأعطيته ثياب كسرى وقيصر ما لبسها؛ لأنه يرى أنها خشنة ولا تلبس, ولو أوتي فقير إلى دور بعض الملوك والأسياد قبل قرون ما سكنها, وأولئك تكبروا على غيرهم في زمان بأنهم أسياد الأرض, ولو عاش بعض الفقراء في زماننا في بيوتهم لانتحر من الفقر, وهذا من غرور الدنيا.

ولهذا نقول: إن الدنيا حقيرة, غرت الأول أنه غني فبطر, وغرت المتأخر أنه فقير فانتحر, وهي من جهة المادة واحدة, بل لو رأيت بعض فقراء اليوم تجد أنه يلبس ما يلبسه الملوك في القرون الماضية, ولهذا ينظر الناس إلى أمر الغنى والفقر بالأمر

النسبي, فالفقير بالنسبة للغني لا بالنسبة لأصل الكفاية, ولهذا هذا التوسع الذي ذكره النبي عليه الصلاة والسلام في أمر الناس أنهم يتطاولون بالبنيان, وكانوا أيضاً حفاة عراة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان من شدة الثراء ووفرة المال وسهولة الحصول عليه.

وقفات مع انصراف جبريل عليه السلام في نهاية الحديث

قال: (ثم انطلق، فلبثت ملياً, ثم قال لي: يا عمر! أتدري من السائل؟).

عدم ذكر السلام من جبريل في حال الانصراف

قوله هنا: (ثم انطلق) يعني: جبريل عليه الصلاة والسلام. وهنا عدم ذكر السلام من جبريل في حال الانصراف لا يدل على عدمه, فالأصل في ذلك أن الإنسان يسلم إذا انصرف كما يسلم إذا قدم.

الحكمة من تأخير النبي سؤاله للصحابة عن حقيقة السائل

قال: (فلبثت ملياً), هنا مكث وقتاً، فلماذا النبي عليه الصلاة والسلام لم يسأل الصحابة عليهم رضوان الله عن حقيقة الرجل السائل حتى انصرف, فلم يخبرهم النبي عليه الصلاة والسلام حال وجوده, وكذلك عند قريب انصرافه, وإنما أخبرهم بعدما انصرف ولبثوا ملياً، يعني: وقتاً، سألهم النبي عليه الصلاة والسلام عنه؟

الحكمة في هذا حتى لا يتعلقوا بالسائل عن السؤال والجواب, فالتعلق لا يكون بالذوات فينصرفوا عن المعاني، ويسلب الاندهاش، والتعلق بالفرد يسلب العلم الذي أخذوه، فأراد أن يستقر العلم لديهم، ثم بعد ذلك يسألهم عن مسألة لا تقدم ولا تؤخر لديهم فيما يتعلق بالعبودية لله سبحانه وتعالى في هذه العبادات المذكورة.

وكذلك ألا ينشغلوا عنه بالنظر إليه, وألا ينشغلوا عنه أيضاً بتتبعه والتماسه في سكك المدينة, وأراد النبي عليه الصلاة والسلام أن ينبههم على المسائل لا أن ينبههم عن السائل.

سبب توجيه السؤال لعمر دون بقية الصحابة

في قول النبي عليه الصلاة والسلام لعمر: (يا عمر! أتدري من السائل؟), توجه النبي ﷺ بالسؤال إلى عمر, ويظهر أن أكبر الصحابة وجوداً هو عمر، ولم يكن أبو بكر موجوداً وإلا لتوجه الأمر إليه, هذا احتمال, ويحتمل أن أبا بكر موجود، ولكن النبي ﷺ توجه بالسؤال إلى عمر وبالإخبار إلى عمر؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام رآه متشوفاً إلى معرفته، فأراد أن يجيبه في ذلك, ولحاجته إلى الجواب إليه، فتوجه النبي ﷺ بذلك فقال: (يا عمر! أتدري من السائل؟).

الحكمة من سؤال النبي عن السائل

وهذا السؤال من رسول الله ﷺ مع العلم الظاهر من النبي عليه الصلاة والسلام أنه يعلم أن عمر لا يعلم, ولكنه أراد أن يبين منزلة المسائل بمنزلة السائل بعد انصرافه حتى تتضح قيمة المسائل لتعلم من السائل, ومن هو بمقام علمه وبمقام قربه من الله سبحانه وتعالى, ولماذا سأل أيضاً؟ ومن هو الجاهل ومن هو العالم؟ حتى تعرف قيمة هذه المسائل أراد النبي ﷺ أن يبين حال السائل وهو جبريل عليه السلام.

قول: الله ورسوله أعلم

قال: (قلت: الله ورسوله أعلم)، هذه العبارة تقال في حياة رسول الله ﷺ؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام يأتيه مدد الوحي، فتقال عند السؤال عند علم شيء يعلمه رسول الله ﷺ من ربه من أمور الوحي أو أضرابها فيقال: الله ورسوله أعلم؛ لأنه هو المبلغ عن الله, فلا رسول في الأرض إلا هو عن ربه عليه الصلاة والسلام, فيقال حينئذٍ: الله ورسوله أعلم. وأما بعد انقطاع الوحي بوفاته عليه الصلاة والسلام فيما يحدث بعد ذلك فلا يقال: الله ورسوله أعلم.

وهنا مسألة وهي: هل للإنسان أن يقول في مسألة يعلمها رسول الله ﷺ قبل وفاته, لكن يقال في المسألة بعد وفاته: الله ورسوله أعلم, كأن يسأل الإنسان: ما حكم كذا وكذا في الدين؟ ما حكم صلاة الوتر هل هي واجبة أم لا؟ وما حكم صلاة الاستسقاء والكسوف وما هي صفته؟ فإذا جهلها الإنسان هل له أن يقول: الله ورسوله أعلم؟

نقول: هذا على معنيين:

المعنى الأول: إذا كان المراد بذلك هو أصل العلم فهذا جائز, يعني: أن النبي ﷺ لديه علم من ربه؛ لأن هذا من الشريعة والوحي, ومقتضى ذلك أن يعلم مراتب الدين, وهذا مقتضى البلاغة.

وأما المعنى الثاني: أن النبي ﷺ لديه علم بذلك في الحال, فهذا مبني على القول بحياة الأنبياء في قبورهم, والعلماء عليهم رحمة الله لهم كلام في هذا، وقد صنف غير واحد من العلماء في هذه المسألة, فصنف البيهقي رحمه الله رسالة في حياة الأنبياء في قبورهم وأنهم أحياء كحياتهم في الدنيا.

وأما ما يكون من أحداث المستقبل بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام فهذا لا يقال فيه: الله ورسوله أعلم, وإنما يقال: الله أعلم وحده, كذلك ما لا يعلمه إلا الله ولو كان في حياة رسول الله لا يقال: الله ورسوله أعلم, مما دل الدليل عليه أنه لا يعلمه إلا الله قيام الساعة, متى تقوم؟ متى يموت فلان, وبأي أرض؟ وما تغيض الأرحام وما تزداد؟ هذه كلها لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى. وكذلك ما يعلم بالنص أو باللزوم عدد قطر الأمطار وورق الأشجار, وعدد التراب, وعدد النجوم وغير ذلك فيقال: الله وحده أعلم سبحانه وتعالى.

تصور جبريل بصورة إنسان عند مجيئه

ثم قال: (فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)، هنا أجاب النبي عليه الصلاة والسلام في سؤاله لعمر بن الخطاب قال: (أتدري من السائل؟ قال: الله ورسوله أعلم, قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم), قوله: (فإنه جبريل) هذا دليل على أن الملائكة يتصورون بصور شتى, وفي هذا دليل على جواز محاكاة الإنسان لصورة غيره, ولهيئة غيره, كأن يتمثل من باب التقريب أو التعليم مشية أحد أو هيئته، فإذا كان من باب تقريب مسألة أو علم أو مفهوم أو نحو ذلك فهذا مما لا حرج فيه.

فوائد متفرقة من سؤالات جبريل للنبي ﷺ

في ذكر النبي عليه الصلاة والسلام لجبريل ليستفيد الصحابة من الأسئلة التي سأل النبي عليه الصلاة والسلام إياها, وكذلك ليبين النبي عليه الصلاة والسلام أهمية هذه المسائل التي سأل عنها, فجبريل نزل من السماء هذه الأسئلة, وهو يعلم ورسول الله يعلم، ولكن ليعلم الآخرون.

وكذلك فيه أنه يستحب للإنسان ولو كان عالماً بالمسألة أن يسأل العالم ليفهم غيره من المسائل التي خفيت, فإذا شعر أن من حوله لم تتضح له هذه المسألة وهو يعلم، فيستحب له أن يسأل خشية أن يكون ثمة التباس في فهم هذه المسألة, فيشكل على فلان, فيقول: نحب أن تعاد هذه المسألة، أو ما الحكم في كذا مع أنه أعاد وهو يعلم, لكن يظن أن أحداً من الجلوس لم يفهم هذه المسألة, أو استشكلت عليه, وهذا مما يستحب وهو أيضاً من السنة والهدي.

وفي قوله: (أتاكم يعلمكم) ذكر التعليم, وفيه دليل على أن السؤال إذا صدر من الإنسان ولو لم يكن منه الجواب أنه معلم غيره, وأنه معلم إذا استفاد غيره, ولهذا جبريل يسأل ولكنه لم يجب, الجواب من النبي عليه الصلاة والسلام, ولكن لما كان السؤال سبباً للجواب كان السائل معلماً.

وفي هذا أن السائل شريك في التعليم للمجيب, وكذلك شريك له في أجره, فإذا سأل الطالب المعلم بنية حسنة، وأراد أن يبين للناس فإنه يأخذ من ذلك الأجر, فما تفوه به العالم بسبب السؤال فيأخذ السائل ذلك الأجر؛ ولهذا جاء في هذا الخبر قال: (هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم), يعني: تلك المسائل.

وفي هذا أيضاً أن الدين إذا أطلق يراد به جميع شرائع الإسلام: الإسلام, الإيمان, الإحسان, حتى أشراط الساعة هي أيضاً من دين الله سبحانه وتعالى, أخبار الفتن, الملاحم, القصص, الترغيب, الترهيب, أحوال الدنيا مما جاء النص فيه أيضاً هذه مما يدخل في دائرة علم الدين فينتفع الإنسان بذلك, ويقربه الله عز وجل إليه, أو يكون سبباً للقرب من الله سبحانه وتعالى.

نحمد الله عز وجل على تسديده أن أتم لنا هذا الحديث قراءة وشرحاً وتعليقاً, فنحمد الله عز وجل على التيسير والتوفيق

والإعانة والتسديد, وأسأل الله عز وجل أن ينفعنا بما علمنا, وأن يعلمنا ما جهلنا, وأن يجعله حجة لنا لا علينا, وأسأله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من المتراحمين المتحابين الذاكرين له كثيراً والذاكرات, إنه ولي ذلك والقادر عليه, وصلى وسلم وبارك على نبينا مُحَّمد.